الفصل الأول
خاتم النبيين ﷺ

قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الاحزاب: ٤٠].

وقال رسول الله ﷺ: (إن لى عند ربى أسماء: أنا محمد وأنا أحمد وأنا حامد وأنا شاكر وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الخطايا. وأنا العاقب) [1]. والعاقب هو من لا نبى بعده وقال عليه الصلاة والسلام: (مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه إلا موضع لبنة من زاوية من رواياه. فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له. ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة. فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين) [رواه البخارى].

إن رسول الله ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين فلا نبى بعده. وشرعه مؤيد إلى يوم الدين. وناسخ لجميع الشرائع التى بعث الله بها النبيين قبله. وهو أكثر الأنبياء تابعا كما قال ﷺ: (فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة) رواه الشيخان عن أبى هريرة وقد أخذ الله العهد والميثاق على سائر الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أنه لو أدركه أحدهم وجب عليه اتباعه ونصرته ﷺ وأرسل إلى الجن اتفاقا كما أرسل إلى الإنس. دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع. قال تعالى: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

وقد أجمع المفسرون على دخول الجن فى هذه الآية. وهو مدلول لفظها فلا يخرج عنه إلا بدليل.

وأما السنة: ففى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه. أن

---

(١) الموطأ للإمام مالك.

رسول الله ﷺ قال: (فضلت على الأنبياء بست فذكر منها، (وأرسلت إلى الخلق كافة) فإن يشمل الإنس والجن. وحمله على الإنس تخصيص بغير دليل فلا يجوز.

وأما إرساله إلى الملائكة فمختلف فيه ويقول بذلك الجمهور.

قال تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رحْمةً لِلعَالمِينَ﴾. وإليكم ما منَّ الله به علينا.

* * *

الأبـــوان

تمهيـد:

يقول الإمام القسطلانى فى المواهب اللدنية:

اعلم ياذا العقل السليم. والمتصف بأوصاف الكمال والتتميم – وفقنى الله وإياك بالهداية إلى الصّراط المستقيم – أنه لما تعلقت إرادة الحق تعالى بإيجاد خلقه وتقديره رزقه. أبرز الحقيقة المحمدية من الأنوار الصمدية [1] فى الحضرة الأحدية. ثم سلخ منها العوالم كلها. علوها وسفلها على صورة حكمه. كما سبق فى سابق إرادته وعلمه ثم أعلمه تعالى بنبوته وبشره برسالته. هذا وآدم – عليه السلام – لم يكن إلا – كما قال – بين الروح والجسد. ثم انبجست منه عيون الأرواح فظهر بالملأ الأعلى. وهو بالمنظر الأجلى. فكان لهم المورد الأحلى فهو الجنس العالى على جميع الأجناس والأب الأكبر لجميع الموجودات والناس.

ولما انتهى الزمان باسم الباطن فى حقه ﷺ إلى وجود جسمه وارتباط الروح به. انتقل حكم الزمان إلى الاسم الظاهر فظهر محمد ﷺ بكلّيته جسما وروحا. فهو ﷺ وإن تأخرت طينته. فقد عرفت قيمته. فهو خزانه السر. وموضع نفوذ الأمر. فلا ينفذ أمر إلا منه. ولا ينقل خبر إلا عنه ولله در القائل:

---

(١) الإضافة للتشريف وللتعريف بقدر المصطفى ﷺ.

ألا بأبى من كان ملكا وسيدا ... وآدم بين الماء والطين واقف
فذاك الرسول الأبطحى محمد ... له فى العلا مجد تليد وطارف
أتى بزمان السعد فى آخر المدى ... وكان له فى كل عصر مواقف
أتى لانكسار الدهر يجبر صدعه ... فأثنت عليه ألسن وعوارف
إذا رام أمراً لا يكون خلافه ... وليس لذاك الأمر فى الكون صارف (١)

إن سيدنا محمدا ﷺ هو سيد الأولين والآخرين والملائكة المقربين والخلائق أجمعين.

ولما كان ﷺ بشرا رسولا ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] كان لزاما علينا أن نتعرف على نسبه الشريف. والعلم بالأنساب ضرورة.

يقول الحافظ ابن حجر: قال ابن حزم وكذا ابن عبد البر: من زعم أن ما ورد من أن علم النسب علم لا ينفع وجهل لا يضر على إطلاقه فليس بمنصف بل ذلك محمول على التعمق فيه. وفى علم النسب ما هو فرض عين وما هو فرض على الكفاية وما هو مستحب. فمن ذلك أن يعلم أن سيدنا محمدا رسول الله هو ابن عبد الله الهاشمى. فمن زعم أنه لم يكن هاشميا فهو كافر. وأن يعلم أن الخليفة من قريش. وأن يعرف من يلقاه بنسب فى رحم محرمة ليجتنب ما يحرم عليه منهم. وأن يعرف من يتصل به ممنّ يرثه أو يجب عليه بره من صلة أو نفقة أو معاونة وأن يعرف أمهات المؤمنين وأن نكاحهن حرام. وأن يعرف الصحابة وأن حبهم مطلوب. وأن يعرف الأنصار ليحسن إليهم لثبوت الوصية بذلك وأن حبهم إيمان وبغضهم نفاق (٢) اهـ ملخصا.

إن مما تميزت به الأمة العربية - فى الجاهلية وفى الإسلام - هو العلم

---

(١) المواهب اللدنية ١ / ٥٥، ٥٦.
(٢) الكوكب الأنور: ص٦٣.

بالأنساب والأحساب. وهذا ما لم يتوفر لغيرها من الأمم الأخرى. وتلك مكرمة تحسب لهذه الأمة.

إن سيدنا رسول الله ﷺ هو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف الذى ينتهى نسبه الشريف إلى سيدنا اسماعيل بن سيدنا ابراهيم عليهما السلام.

وأمه هى السيدة: آمنة بنت وهب من بنى زهرة بنت سيد قومها والذى يتصل نسبها بهذا النسب الشريف الذى ينتمى إليه زوجها الحبيب.

والأب والأم - فوق أنهما كانا من سادة قومهما - فقد كانا يتحليان بحميد الصفات وجليل المناقب، والشئ من معدنه لا يُستغرب فهما من سلالة طيبة وأرحام طاهرة. ومنهما كان وليدهما الوحيد سيدنا محمد ﷺ.

وعنهما نذكر نبذة قدر الجهد وقدر الاستطاعة مما تم جمعه من مآثرهما ومناقبهما. والله المستعان.

* * *

(أ) الأب الذبيح

هو السيد: عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم.

ومعنى: عبد الله. الخاضع الذليل لله تعالى. والوصف بالعبودية هو أشرف الأوصاف. ومن ثم ذكر النبى ﷺ فى أفخر مقاماته ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا** ﴾ [الإسراء: ١] ﴿ **فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ** ﴾ [النجم: ١٠].

وعبد الله من أحب الأسماء إلى الله تعالى. قال رسول الله ﷺ: (أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن) (١).

وقال أيضا: (أحب الأسماء ما تعبد به) (٢).

---

(١) أخرجه الترمذى: ٢٨٣٣ والنسائى: ٦/٢١٨.

(٢) خرجه أحمد فى مسنده: ٤/٣٤٥ والبيهقى فى السنن ٩/٣٠٦ والدارمى: ٢/٢٩٤.

ولم يختلف فى اسمه. وكنيته: أبو قثم. وهو من أسماء النبى ﷺ. وقثم بضم القاف. هو: الإعصاء والخير.

قال أهل السير: كان عبد الله والد النبى ﷺ أنهد فتى فى قريش وأصبحهم خلقا. وأحسنهم أخلاقا. وكان نور النبى ﷺ فى وجهه. وكان يقال له: الذبيح.

فقد روى عن النبى ﷺ قال: (أنا ابن الذبيحين) يعنى بهما عبد الله وإسماعيل. وذكره القرطبى فى التفسير والحاكم فى مستدركه.

وروى الحاكم أيضا عن معاوية رضى الله عنه. أن رجلا قال للنبى ﷺ: يا ابن الذبيحين. فتبسم ﷺ ولم ينكر عليه.

فقيل لمعاوية: ومن الذبيحان؟ فقال: الذبيح الأول اسماعيل وأما الثانى فعبد الله بن عبد المطلب.

وقال ابن حجر الهيثمى فى (النعمة الكبرى): وسبب تسميته ذبيحا ما رواه الطبرانى بسنده المتصل إلى ابن عباس – رضى الله عنهما – قال: كان عبد المطلب نذر إن أكمل له عشرة من الولد نحر أحدهم تقربا إلى الله تعالى. فلما كملوا. نام عبد المطلب عند الكعبة فرأى قائلا يقول: أوف بنذرك لرب هذا البيت فاستيقظ فزعا مرعوبا وأمر بذبح كبش وتصدق به. ثم نام فرأى أن قرب ما هو أكبر من ذلك فقرب ثورا. ثم نام فرأى أن قرب ما هو أكبر من ذلك. فقرب جملا. ثم نام فرأى أن قرب ماهو أكبر من ذلك. فقال: وما أكبر من ذلك؟ قال: أحد أولادك الذى نذرته. فاغتم غما شديدا. فجمع أولاده فأخبرهم. فاتفقوا على القرعة فأقرع بينهم أيهم ينحر فصارت القرعة على: عبد الله. وكان أحب الناس إلى عبد المطلب. فقال: اللهم هو أو مائة من الإبل. ثم أقرع. فصارت القرعة على الإبل. فنحرها. أ. هـ.

وقالوا: إن السبب فى ذلك هو: قيام عبد المطلب بحفر زمزم. لأن الجرهمى: عمرو بن الحارث لما أحدث قومه بحرم الله الحوادث. قيض الله لهم من

أخرجهم من مكة. فعمد عمرو بن الحارث إلى نفائس فجعلها فى زمزم وبالغ فى طمها - أى ردمها - وفر إلى اليمن بقومه. فلم تزل زمزم من ذلك لعهد مجهولة إلى أن رفعت عنها الحجب برؤيا منام رآها عبد المطلب دلته على حفرها بأمارات عليها. فمنعته قريش من ذلك ثم آذاه السفهاء فاشتد بذلك بلواه. ومعه ولده الحارث الذى لم يكن له ولد سواه. فنذر لئن رزقنى الله عشرة بنين وصاروا له أعوانا ليذبحن أحدهم لله قربانا. ثم حفرها عبد المطلب فكانت له فخرا وعزا.

فلما تكامل بنوه عشرة وهم: الحارث والزبير وحجل وضرار والمقوم وأبو لهب والعباس وحمزة وأبو طالب وعبد الله. وقر الله بهم عيناه نام ليلة عند الكعبة المطهرة فرأى فى المنام قائلا يقول: يا عبد المطلب أوف بنذرك لرب هذا البيت فاستيقظ فزعا مرعوبا.

ثم قدم ما لم يقبل منه. حتى قال له الهاتف: قرب أحد أولادك الذى نذرته فأقرع بين أبنائه فخرجت القرعة على عبد الله فقبض عبد المطلب على يد ولده عبد الله وأخذ الشفرة ثم أقبل إلى إساف ونائله - صنمين عند الكعبة ينحر ويذبح عندهما النسائك - فقام إليه سادة قريش وقالوا له: لا تدعك أن تذبحه حتى نعذر فيك إلى ربك ولئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه فيذبحه وتكون سنة. وقالوا له: انطلق إلى فلانة الكاهنة.

فانطلقوا إليها حتى أتوها بخيبر فقص عليها عبد المطلب القصة. فقالت كم الدية فيكم؟ قالوا: عشرة من الإبل. قالت: ارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم ثم قربوا عشرة من الإبل ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح فإن خرجت القداح على صاحبكم فزيدوا الإبل ثم اضربوا أيضا فرجع القوم إلى مكة وفعلوا ما قالته لهم الكاهنة. حتى بلغت ديته مائة من الإبل. فنحرت الإبل وتركت. لا يصد عنها إنسان ولا طائر ولا سبع. أ. هـ ملخصا المواهب.

وليس عبد الله هو أصغر أولاد عبد المطلب فقد كان أعمام النبى ﷺ اثنى عشر رجلا كان أصغرهم العباس وأصغر منه حمزة ولكن عبد الله كان أصغر العشرة.

روى عن العباس أنه قال: أذكر مولد رسول الله ﷺ وأنا ابن ثلاثة أعوام أو نحوها. فجئ حتى نظرت إليه وجعل النسوة يقلن لى قبل أخاك فقبلته.

وروى أن رجلا قال للعباس رضى الله عنه: أأنت أكبر أم رسول الله ﷺ. فقال: إن رسول الله ﷺ أكبر منى ولكنى ولدت قبله بعامين.

فعبد الله كان أصغر أولاد عبد المطلب حين أراد نحره. ثم ولد له بعد ذلك حمزة ثم العباس رضى الله عنهما كما ذكره البكائى أحد رواة المغازى عن ابن إسحاق وروى له مسلم والترمذى وابن ماجة ويؤخذ مما ذكر أن عبد المطلب كان مؤمنا موحدا معظما لحرم الله تعالى وأنه اقتدى بسيدنا ابراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام فى الإقدام على ذبح ولده لله تعالى وثباته على ذلك. لأمره بذلك من الله عز وجل حيث قيل له: أوف بنذرك. وفى وقوع الأمر بفداء ولده وفى إجابة أولاده بنظير ما أجاب سيدنا اسماعيل أباه ابراهيم عليهما السلام ﴿**يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ**﴾ [الصافات: ١٠٢].

حيث قالوا له: أوف بنذرك وافعل ما شئت. وفى انقياد عبد الله له فى ذلك حيث ذهب به وهو يقوده إلى المذبح. فكان عبد الله هو الذبيح الثانى. وأنه أول من سن دية النفس. مائة من الإبل، وأقر ذلك رسول الله ﷺ وصار شرعا إسلاميا إلى يوم القيامة فما أشبه الليلة بالبارحة.

وروى الحافظ العراقى من طريق ابن إسحاق بسنده قال: لما انصرف عبد المطلب – يعنى من نحر الإبل – عن عبد الله. أخذ بيد عبد الله فمر به – فيما يزعمون – على امرأة من بنى أسد وهى أخت ورقة بن نوفل. فقالت له حين نظرت إلى وجهه: أين تذهب يا عبد الله؟ قال: مع أبى. قالت: لك مثل الإبل

التى نحرت عنك وَقَعْ علىَّ الآن. قال: أنا مع أبى ولا أستطيع خلافه ولا فراقه [1].

وروى الخرائطى وأبو نعيم وابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنهما: أنه لما انطلق به أبوه ليزوجه مر على فاطمة الخثعمية – كاهنة مشهورة قرأت الكتب ولها جمال مفرط وعفة زائدة وكان شباب قريش يتحدثون بها – فقالت له: يا فتى من أنت؟ فأخبرها. فقالت: هل لك أن تقع علىَّ الآن وأعطيك مائة من الإبل؟ فنظر إليها وقال:

أما الحرام فالممات دونه ... والحل لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذى تبغينه ... يحمى الكريم عرضه ودينه [2]

وفى غرائب ابن قتيبة أن التى عرضت نفسها عليه هى ليلى المخزومية هذا وقد قرر المؤرخون أن عبد الله لم يكن كسائر شباب مكة. فقد كان بهى الطلعة. يُرى نور النبوة فى وجهه. كما كان يخلو بنفسه كثيرا متأملا فى ملكوت الله عز وجل. وقد أخبروا أنه لم يثبت أنه قد سجد لصنم وخاصة فى آخر عمره. كما أنه كان جادا يتحلى بكثير من الصفات الحميدة كالمروءة والشجاعة والنجدة. مطيعا لأبيه صادقا وأمينا ومحبا للخير.

وكانت تلك سيرته حتى وافته المنية وأسلم الروح لخالقها بعد زواجه من السيدة: آمنة بنت وهب بحوالى شهرين أو أكثر وزوجه حامل بسيد الأنام ﷺ فلم تكتحل به عيناه. وكان ذلك فى عام الفيل فى شهر رمضان المعظم بالمدينة المنورة على الصحيح إذ كان فى زيارة لأخوال أبيه عبد المطلب.

روى الحاكم فى المستدرك عن قيس بن مخرمة قال: (توفى أبو النبى ﷺ وأمه حبلى) ورواه البيهقى فى الدلائل وكذا أبو نعيم وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

---

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل ١/١٠٢.
(٢) الوفا ٨٣ وأبو نعيم فى الدلائل ٨٢.

وهكذا ترك عبد الله الدنيا مخلفا وراءه زوجه الحبيبة تعانى آلام الوحدة وذهاب الحبيب حتى أقر الله عينيها بولادة المصطفى ﷺ.

* * *

(ب) أم النبى ﷺ

(١) المرأة العربية فى العصر الجاهلى:

إن المرأة العربية فى الجاهلية. كانت تحظى بالكثير من المكرمات بما لم تحظ بها مثيلاتها من الأمم الأخرى. فلقد كانت مرعية الجانب. مصونة المنزلة محفوظة الأصل والنسب وطهارة الرحم. أثرت وتأثرت ببيئتها ومجتمعها فلم تكن كمًّا مهملا ولم يقتصر دورها فى الحياة على أن تكون متعة للرجل ومنجبة للولد. ولكنها كانت شريكة له فى كل شئ فى عسره وفى يسره: فى حربه وفى سلمه.

وقد أخطأ كثيرا من ظن غير ذلك من هؤلاء الذين يلهثون وراء جمع الروايات الهزلية. وسخافات الجهلة بتاريخ الأمة العربية.

وافتراءات المستشرقين وأعداء العرب من اليهود والنصارى ودعاة التحلل من القيم والمثل العليا. كهؤلاء الذين يروون حكايات وأد البنات وميراث الزوجات من الآباء للأبناء واستعباد الحرائر فى الحروب والغارات وإن كل من يطلع من مظاهر الضعف والهوان لم يقم بها إلا القلة من سفلة الناس ممن لم تكن لهم جذور عربية أصلية.

وما نسب فعله إلى سيدنا عمر رضى الله عنه من وأد ابنته كان محض افتراء وكذب مختلق لأن سيدنا عمر كان من أشرف بيوتات العرب مما تأبى ذلك فالمؤرخون الأئمة والرواة القدامى لم يضنوا علينا بتدوين ما تناقلته الأخبار من مآثر المرأة العربية. وكيف أنها كانت معززة مكرمة وأن الرجل كان ينظر إليها نظرة إجلال واحترام.

فهذا رسول الله ﷺ يقول معتزا بأمهاته فى الجاهلية : (أنا ابن العواتك من سليم) رواه ابن حبيب فى المحبّر : ٤٧ .

فقد كان العرب قديما يحرصون فى جاهليتهم على كرم النسب وطهارة الأرحام ونقاء الأصول . قال حكيمهم « أكثم بن صيفى » : (لا يفتننكم جمال النساء عن صراحة النسب . فإن المناكح الكريمة مَدْرَجةَ الشرف) .

وقال شاعرهم :

وأول خبث الماء خبث ترابه وأول خبث القوم خبث المناكح

ونقل أبو عمرو بن العلاء – الراوية الصدوق الحجة وأحد السبعة القراء الأئمة – عن أحدهم قال : لا أتزوج امرأة حتى أنظر إلى ولدى منها . قيل له : كيف ذلك؟

قال : أنظر إلى أبيها وأمها فإنها تجر بأحدهما .

وقال قائلهم لبنيه : : قد أحسنت إليكم صغارا وكبارا وقبل أن تولدوا .

قالوا : وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد؟

فقال : (اخترت لكم من الأمهات من لا تسبوا بها) (١) .

وذلك لأن عرب الجزيرة كانوا يرون فى الإنجاب من الإماء مسبة ومذلة للأبناء . لأنهم كانوا يحرصون على عزة الأمومة وصيانتها بالمهج والأرواح .

روى الأصفهانى فى كتابه (الأغانى) : أن عمرو ابن هند ملك الحيرة . قال يوما لجلسائه :

هل تعلمون أحدا من العرب تأنف أمه من خدمة أمى؟

فقالوا : نعم . . أم عمرو بن كلثوم . . قال : ولم؟ قالوا : لأن أباها مهلهل بن ربيعة . وعمها : كليب وائل أعز العرب . وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب . وابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه وليث كتيبتهم .

---

(١) عيون الأخبار ٤ / ٣ .

فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن تزور أمُّه أمَّه. فأقبل ابن كلثوم من الجزيرة فى جماعة من بنى تغلب، وأقبلت أمه (ليلى) فى ظعن منهم وأمر عمرو بن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا ودخل ابن كلثوم رواق الملك وأدخلت (ليلى) إلى هند فى قبة إلى جانب الرواق. وكان بين الإثنتين صلة نسب.

قالوا: وقد كان عمرو بن هند أوصى أمه أن تنحى الخدم إذا دعا بالطرف. وتستخدم (ليلى) فلما فعل. قالت هند لزائرتها بعد أن أطمأن بها المجلس:

ناوليني يا ليلى ذلك الطبق.

فقالت ليلى فى نفور وأنفة: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها.

فأعادت هند عليها وألحت. وإذ ذاك صاحت ليلى:

– واذلاه .. يالتغلب.

فسمعها ابنها فثار الدم فى عروقه. وانتفض قائلا: لا ذل لتغلب بعد اليوم ثم نظر حوله فإذا سيف معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره فوثب إليه. وأطاح به رأس ابن هند.

وقال الرواة إنه أنشد يومئذ معلقته المشهورة مرتجلا التى ظلت تغلب تعظمها وترويها لأبنائها جيلا بعد جيل.

كما يعترف المؤرخون بأن حاتما الطائى قد ورث الجود والكرم عن أمه والكتب القديمة مملوءة بالذخائر وبالأحاديث عن نساء عربيات فضليات لهن ذكرهن ومآثرهن فى التاريخ.

مثل: كتاب المحبر لأبى جعفر بن حبيب. وجمهرة أنساب العرب لابن حزم وعيون الأخبار لابن قتيبة والأغانى للأصفهانى. ونسب قريش للزبيرى والسيرة النبوية لابن هشام وغيرها من كتب التراث.

فقد ذكرن نساء كنّ فى الجاهلية شهيرات ولهن أدوارهن فى الحياة منهن أم البنين بنت عامر بن عمرو وعاتكة بنت مرة بن هلال السلمية التى أنجبت لزوجها عبد مناف بن قصى: هاشما جد عبد الله والد المصطفى ﷺ. والمطلب بن عبد مناف جد الإمام الشافعى رضى الله عنه.

وأم الفضل: لبابة الكبرى بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه التى أنجبت له الفضل و عبد الله بن عباس الذى كان من ذريته خلفاء بنى العباس.

وهند بنت عتبة زوج أبى سفيان وأم سيدنا معاوية رضى الله عنه مؤسس الدولة الأموية.

والسيدة: آمنة بنت وهب أم المصطفى ﷺ التى أنجبت للبشرية: رحمة الله للعالمين صلوات الله وسلامه عليه ومنهن: زرقاء اليمامة وأم جميل زوج أبى لهب.

ومنهن الشاعرات البليغات، والناطقات بالحكمة والمثل.

ومنهن المشاركات فى الحروب لرفع معنويات المقاتلين وتضميد الجرحى والضاربات بالدفوف لشحدهم المقاتلين وبث روح الشجاعة والبسالة والمقاومة فيهم.

فهذه مجرد أمثلة تبين لنا أن ما حظيت به المرأة العربية فى جاهليتها كان أكثر مما أعطى لمثلها فى الأمم الأخرى. وهو ما يكذب ما يتكلم به بعض الحاقدين على أمة العرب الذين يدعون أن المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها ليست إلا متاعا من الأمتعة. مهملة وليس لها دور فى الحياة العامة. وهذا منهم محض افتراء ويكذبه واقع المرأة العربية فى الجاهلية وفى ظل الإسلام وقد رأينا كيف أنها كانت تشارك الرجل فى كل شئ وتشير عليه ولها يسمع ولرأيها يقدر رغم أنف الحاقدين والجهلة بتاريخ المرأة العربية.

(٢) أم المصطفى ﷺ :

هى السيدة : آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر. وفهرهم قريش.

قال ابن حزم فى جمهرة الأنساب : (لا قريش غيرهم ولا يكون قرشى إلا منهم).

وأمها : برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى بن كلاب فنسب النبى ﷺ لأبيه وأمه جعله يعتز به .

فقد روى ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا : « لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما » رواه القاضى عياض وأخرج مسلم فى صحيحه عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » ورواه الترمذى والقاضى عياض فى الشفا . فهو صلى الله عليه وآله وسلم خيار من خيار من خيار من خيار .

إن السيدة : آمنة بنت وهب . قد تفتح صباها فى أعز بيئة وأطيب منبت فاجتمع لها من أصالة النسب ورفعة الحسب . ما تزهو به فى ذاك المجتمع المكى المعتز بكرم الأصول وشرف الأعراق .

كانت زهرة قريش اليانعة وبنت سيد بنى زهرة نسبا وشرفا . وقد ظلت نى خدرها محجبة عن العيون . مصونة عن الابتذال حتى ما يكاد الرواة يتبينون ملامحها . أو يتمثلونها فى صباها الغض .

والذى يعرفه المؤرخون عنها أنها – عندما خطبت لعبد الله بن عبد المطلب – كانت يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا، كما قال ابن إسحاق على أن شذاها العطر كان ينبعث من دور بنى زهرة فينتشر فى أرجاء مكة ويثير أكرم

الآمال فى نفوس شبانها الذين زهدوا فى كثيرات سواها وقد عرفت (آمنة) فى طفولتها وحداثتها. ابن العم (عبد الله بن عبد المطلب) بين من عرفت من لداتها أبناء الأسر القرشية إذ كان البيت الهاشمى أقرب هذه الأسر جميعا إلى آل زهرة. جمعتهما أو اصر ود قديم لم تنفصم عراه منذ عهد الشقيقين (قصى وزهرة. ولدى كلاب بن مرة).

عرفته قبل أن ينضج صباها ويحجبها خدرها. وتلاقت وإياه فى الطفولة البريئة فى ربوع مكة وفى ساحة الحرم الأمين. كما جمعتهما مجامع القبيلة حيث كان عبد المطلب سيد بنى هاشم ووهب سيد بنى زهرة يتزاوران على ود ويجتمعان للتشاور كلما أهم قريشا. أمر.

ثم حجبت (آمنة) حين لاحت بواكير نضجها فى الوقت الذى كانت فيه خطوات (عبد الله) تسرع به إلى الشباب.

ورنت أنظار الفتيان من بيوتات مكة إلى زهرة قريش وتسابقوا إلى باب بيتها يلتمسون يدها. ويزفون إليها ما لهم من مآثر ومناقب وأمجاد (١) . هـ.

إن كل فتى فى مكة كان يطلب يد (آمنة) لتكون زوجًا له إلا (عبد الله بن عبد المطلب) رغم تعلقه بها – لأنه كان مشغولاً بأمر الذبح والفداء الذى كان حديث مكة كلها. والذى أهم كل فتاة كانت تطمع فى عبد الله أن يصبح زوجها. وشغلت آمنة بهذا الأمر كثيرا.

ولما جاء الفرج من الله تعالى. ونجا عبد الله من الذبح وعم الفرح والسرور بمكة وأضيئت الأنوار وأخذ الرجال يتسامرون فى دار الندوة ويقولون ما أشبه الليلة بالبارحة أليس (عبد الله) هو حفيد نبى الله (اسماعيل عليه السلام)؟

إذا سيكون لعبد الله – حتما – شأن كبير أو أمر عظيم ينتظره ولما قدم عبد المطلب فداء ولده عبد الله مائة من الإبل.

قال ابن إسحاق فى السيرة: (وإذ ذاك اطمأن قلب الشيخ التقى ونحرت الإبل. ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا سبع).

---

(١) أم النبى: ٨٣، ٨٤.

ثم يقول: ثم انصرف عبد المطلب آخذا بيد عبد الله – إثر افتدائه من الذبح – فخرج حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة. وهو يومئذ سيد بنى زهرة نسبا وشرفا فزوجه ابنته آمنة) أ. هـ.

وبذلك حظيت السيدة آمنة بما لم تحظ به امرأة أخرى فى مكة ولا فى غيرها وكيف لا يكون ذلك وهى الطاهرة العفيفة ذات الحسب والنسب. وعبد الله هو الطيب الطاهر ذو الحسب والنسب. فكل منهما كان كفؤا للآخر.

٣ – الزواج المبارك:

ولما انصرف السيد: عبد الله مع أبيه بعد نحر الإبل. وفى الطريق استوقفته رقية بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشية – وقيل كان اسمها: قتيلة كما نقله النويرى فى نهاية الأرب – وقيل غير ذلك وكان ذلك فى مكان قريب من الكعبة المشرفة. فقالت له: أين تذهب يا عبد الله؟

فاجاب: مع أبى.

قالت: لك مثل الإبل التى نحرت عنك اليوم. إن قبلت أن أهب لك نفسى الساعة.

فرد عليها فى تلطف: أنا مع أبى ولا أستطيع خلافه ولا فراقه، وذكر ابن سعد فى طبقاته والطبرى وابن الأثير: أن امرأة أخرى تسمى فاطمة بنت مر – وكانت من أجمل النساء وأعفهن – وكانت تقرأ الكتب وقيل: كانت كاهنة من خثعم. دعته إلى نكاحها. فنظر إليها. وقال:

أما الحرام فالممات دونه والحل لا حل فاستبينه

فكيف بالأمر الذى تبغينه يحمى الكريم عرضه ودينه

وقيل أيضا: إن ليلى العدوية قد عرضت نفسها عليه يومئذ فلم يستجب لها وردها ردًّا حسنًا معتذرًا وحقا كان عبد الله بن عبد المطلب كما قال الزبير مما ورد فى عيون الأثر: «وما رئى رجل فى قريش قط. أحسن منه».

وقال الدكتور هيكل فى حياة محمد: «أن عبد الله كان شابا وسيما قويا.

فلم يكن عجبا أن تطمع غير آمنة فى الزواج منه. فلما بنى بها. تقطعت بغيرها أسباب الأمل ولو إلى حين».

وقال البرزنجى (١) فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف ابن زهرة بن كلاب. وهو يومئذ سيد بنى زهرة. فزوجه آمنة بنت وهب. وهو يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا. أى وذلك بعد أن تزوج عبد المطلب هالة بنت أهيب أخى وهب وهى أم حمزة بن عبد المطلب.

فقالت قريش: غلب عبد الله أباه عبد المطلب. فزعموا أن عبد الله دخل عليها حين أملكها. فكأنه وقع عليها فحملت برسول الله ﷺ ثم خرج من عندها. فأتى المرأة التى عرضت عليه ما عرضت - أى ليستخرج ما عندها من العلم - فقال لها: مالك لا تعرضين على اليوم ماكنت عرضت بالأمس؟ فقالت له: فارقك النور الذى كان معك بالأمس فليس لى بك اليوم حاجة.

وفى رواية قالت: كان ذلك مرة فاليوم لا. فذهب مثلا.

وفى أخرى: أنها قالت: والله إنى لست بصاحبة ريبة ولكن رأيت النور فى وجهك فأحببت أن تضعه عندى. وأبى الله أن يضعه إلا حيث يشاء وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل. وكان قد تنصر واتبع الكتب أنه لكائن فى هذه الأمة نبى. أ. هـ.

وكذلك قالت له نفس القول فاطمة بنت مر وليلى العدوية. بأن السبب الذى دعا كلا منهن أن تهب نفسها له. هو ما رأته كل منهما من النور المحمدى الذى كان فى وجهه. فلما فازت به (آمنة) أصبحت كل واحدة منهن غير راغبة فيه.

ولما طلب عبد المطلب من وهب أن يزوج ابنته آمنة لابنه عبد الله ذهب وهب لابنته فى خدرها ليقول لها فى رقة وحنو:

---

(١) شرح المولد النبوى: ١٢٥، ١٢٦.

«إن شيخ بنى هاشم قد جاء يطلبك زوجة لابنه عبد الله».

ثم عاد إلى ضيفيه. وقد ترك ابنته فى شبه ذهول ثم ترمى نفسها فى حضن أمها فى حنو غامر وقد ملأت السعادة قلبها. فلقد فازت بحب فتى مكة وزينة شبابها.

ودخل بها عبد الله ثلاثة أيام عند أهلها – كما هى عادتهم – ثم انتقل بها إلى داره التى عاش فيها مع عروسه أياما لم تتجاوز العشرة أيام. ثم كان الرحيل مع قافلة التجارة المسافرة إلى بلاد الشام. وعند عودة الرحلة تخلف (عبد الله) فى (يثرب) عند بنى النجار أخوال أبيه عبد المطلب لمرضه وبقى عندهم حتى مات ولم يمض على يوم عرسه سوى شهرين فى أصح الأقوال. لم يأنس فيهما بعروسه سوى عشرة أيام بشرته فيها برؤياها (رأت كأن شعاعا من النور ينبثق من كيانها اللطيف فيضئ الدنيا من حولها حتى لكأنها ترى به بصرى من أرض الشام. وسمعت هاتفا يهتف بها «إنك قد حملت بسيد هذه الأمة» كما روى ابن إسحاق فى السيرة وابن سعد فى الطبقات وبلغ خبر وفاة عبد الله إلى آمنة من أبيه عبد المطلب وأبيها وهب فنزل الخبر عليها نزول الصاعقة. ووجمت للخبر وقست عيناها فما تسعفانها ببكاء. ولما تيقنت من وقع الكارثة وفاض الدمع قالت ترثى الحبيب الذى سافر بلا عودة:

عفا جانب البطحاء من زين هاشم ... وجاور لحدا خارجا فى الغماغم
دعته المنايا دعوة فأجابها ... وما تركت فى الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريره ... تعاوره أصحابه فى التزاحم
فإن يك غالته المنون وريبها ... فقد كان معطاء كثير التراحم

وبكت مكة كلها ووجد عليه عبد المطلب وأولاده ذكورا وإناثا. وترملت العروس الشابة وما يزال فى يديها خضاب العرس، لك الله يا آمنة.

٤ - الأرملة الشابة :

مات عبد الله بن عبد المطلب وترك زوجه (آمنة) مرتدية ثياب العرس لقد كتب الله تعالى عليه الموت هكذا سريعا. ففيم كان الفداء؟

من كان يظن حين نحرت الإبل المائة بالحرم وتركت لا يُصدَ عنها إنسان ولا سبع. أن المنايا واقفة بالمرصاد للذبيح المفتدى. على قيد خطوات معدودات؟

لم يتصور أحد أبدا من أهل مكة أن الموت سوف يأتى سريعا ليخطف من بينهم هذا الفتى الذى لم يستمتع من حياته الجديدة إلا بعشرة أيام فقط سافر بعدها فى قافلة التجارة وكله أمل أنه سوف يعود قريبا لزوجه الحبيبة ليبنى معها أحلامهما. ولكن شئنا أمرا وشاء الله أمرا آخر لقد نجا عبد الله من الذبح بالفداء أياما معدودات لكى يضع الأمانة التى حملها عند زوجه العفيفة الطاهرة. لقد أودعها نور النبوة الذى كان يحمله. يقول الرسول ﷺ: «.. ثم لم يزل الله تعالى ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا. لا تتشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما».

لقد عاشت السيدة: آمنة فى وحدتها تجتر أحزانها وتكابد الذى تجد من شدة المصاب حتى خيف عليها. فتتابع أهلها يحاولون أن يعزوها ويواسوها ولكنها كانت تأبى أن تقبل فى عبد الله عزاء.

وخاف عليها أهلها من آل هاشم وآل زهرة أن يذهب بها الحزن وناشدوها الصبر الجميل، ولكن كان الأمر أكثر شدة. وأشد صعوبة على فتاة لم تهنأ بزوجها فى أيام عرسها.

ولكن رحمة الله تعالى - التى شملتها - كانت أوسع وأرحب.

فبينما هى تجتر مرارة آلامها وأحزانها أتاها آت وهى بين النائمة واليقظانة فقال: «هل شعرت بأنك حملت بسيد الأنام».

روى القسطلانى [1] من حديث ابن إسحاق: أن آمنة كانت تحدث: أنها أتيت حين حملت به ﷺ فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة. وقالت: ما شعرت بأنى حملت به. ولا وجدت له ثقلا ولا وحما كما تجد النساء إلا أنى أنكرت رفع حيضتى. وأتانى آت وأنا بين النائمة واليقظانة فقال: هل شعرت بأنك حملت بسيد الأنام. ثم أمهلنى حتى إذا دنت ولادتى أتانى فقال لى: قولى:

أعيذه بالواحد من شر كا حاسد

ثم سميه: محمدا.

لقد كان لهذه البشرى أثر كبير على السيدة: آمنة. فلقد تبدلت أحزانها وآلامها بأمل كبير. تقرُّبه عيناها. ولعله يكون عوضا عظيم الشأن عن الحبيب المفقود. فهذه البشرى كانت أقوى من رجاءات أهلها وحسن مواساتهم. فتبدل حالها بما قضت عليه البشرى من آلامها وأحزانها. وشغلت آمنة بما فى أحشائها الذى جاءت به البشرى مرارا عديدة.

روى البرزنجى قال: قال فى «المواهب»: ولما حملت آمنة برسول الله ﷺ ظهر لحمله عجائب ووجد لإيجاده غرائب. فذكروا أنه لما استقرت نطفته الزكية ودرته المحمدية فى صدفة آمنة القريشية نودى فى الملكوت ومعالم الجبروت أن عطروا جوامع القدس لأسنى. وبخروا جهات الشرف الأعلى وافرشوا سجادات العبادات فى صفف الصفا لصوفية الملائكة المقربين أهل الصدق والوفا. فقد انتقل النور المكنون إلى آمنة ذات العقل الباهر والفخر المصون. قد خصها الله تعالى القريب المجيب بهذا السيد المصطفى الحبيب لأنها أفضل قومها حسبا وأنجبهم وأزكاهم أصلا وفرعا أطيب.

وقال سهل بن عبد الله التسترى: لما أراد الله خلق محمد ﷺ فى بطن آمنة

---

(١) المواهب: ١/ ١٢٠.

ليلة رجب – أى ليلة أوله – وكانت ليلة جمعة أمر الله تعالى فى تلك الليلة رضوان خازن الجنان أن يفتح الفردوس ونادى مناد فى السماء ألا إن النور المخزون المكنون الذى يكون منه النبى الهادى فى هذه الليلة يستقر فى بطن آمنة الذى يتم فيه خلقه ويخرج إلى الناس بشيرا ونذيرا.

وفى رواية كعب الأحبار: أنه نودى تلك الليلة فى السماء وصفاحها والأرض وبقاعها. أن النور المكنون الذى منه رسول الله ﷺ انتقل فى بطن آمنة فيا طوبى لها ثم يا طوبى [1]. أ. هـ.

لقد حملت آمنة فلم تر لحملها ثقلا ولا وحما – كما ترى النساء – غير أنها أنكرت عدم نزول حيضتها. ولقد رأت البشريات التى أكدت لها حملها لجنين سيكون له شأن عظيم مما طمأنها على حملها.

هذا وقد وقعت إرهاصات ورؤى لكثير من الناس تدل على قرب ولادة خير البشر. فقد عم الخير وكسيت الأرض بالخضرة بعد طول جدبها ونطقت بحمله الدواب وتهاوت الأصنام سجدا.

قال فى (المنح): وذكروا: يعنى علماء هذا الشأن – أنه لما استقرت نطفته الكريمة فيها – أى أمه ﷺ – أصبحت أصنام الدنيا منكوسة.

وقد وقع منهم ذلك أيضا عند ولادته ﷺ فعن عبد المطلب قال: كنت فى الكعبة فرأيت الأصنام سقطت من أماكنها وخرت سجدا وسمعت صوتا من جدار الكعبة يقول: ولد المصطفى المختار الذى تهلك بيده الكفار. ويطهر من عبادة الأصنام. ويأمر بعبادة الملك العلام وقال جلال الدين السيوطى فى خصائصه: إن من خصائصه ﷺ تنكس الأصنام لمولده [2].

وروى البرزنجى قال: أخبر زيد بن عمرو بن نفيل قال فى حديثه: خرجت

---

(١) شرح المولد النبوى: ١٣٠

(٢) الخصائص الكبرى ١ / ٨٠.

من عند أهلى وهم يذكرون حمل آمنة حتى أتيت جبل أبى قبيس أريد الخلوة فيه إذ رأيت رجلا من السماء وله جناحان وقد وقف على أبى قبيس مشرفا على مكة. ونادى: ذل الشيطان وبطلت الأوثان. ثم نشر ثوبا معه فاهوى نحو المشرق والمغرب فرأيته قد ظل بين السماء والأرض، وسطع نور كاد يخطف بصرى. وهالنى ما رأيت وخفق الهاتف بجناحه حتى سقط على الكعبة فقال: ذلت الأصنام وأذن زيفها وأومأ إلى الأصنام التى على الكعبة فسقطت كلها.

ثم قال: وفى القصة. فقال النجاشى: ويحكما. أخبركما بما أصابنى: إنى لنائم - فى تلك الليلة التى ذكرتماها - فى قبتى وقت خلوتى. إذا بهاتف يقول حل الويل بأصحاب الفيل. ترميهم الطير الأبابيل بحجارة من سجيل. ولد النبى الأمى. من أجابه سعد. ومن أباه عند. فذهبت أصيح فلم أطق الكلام ورمت القيام فلم أطق القيام. ففزعت القبة بيدى. فسمع ذلك أهلى فتبادروا وأومأت إليهم أن احجبوا عنى الناس فحجبوهم. حتى أطلق الله لسانى ويدى وروى ابن القطان [1]: أن نفرا من قريش منهم ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وعبد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث. كانوا عند صنم لهم قد اجتمعوا إليه يوما. اتخذوا ذلك اليوم عيدا فى كل سنة يعظمونه وينحرون عنده الجزور ويأكلون ويشربون الخمر ويعكفون عليه. فرأوه يوما مكبوبا على وجهه فأنكروا ذلك فأخذوه وردوه إلى حاله. فلم يلبث أن انقلب انقلابا عنيفا فأخذوه وردوه إلى حاله. فانقلب الثالثة. فلما رأوه اغتموا. فقال عثمان بن الحويرث: ما له قد أكثر التنكيس؟ إن هذا لأمر حدث - وذلك فى الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ - فجعل عثمان بن الحويرث يقول:

أيا صنم العيد الذى صف حوله ... صناديد قوم من بعيد ومن قرب

تنكستَ مغلوبا فماذاك قل لنا ... بغاك سفيه أم تنكست للعب

فإن كان عن ذنب أتينا فإننا ... نبوء بإقرار ونلوى عن الذنب

---

(١) عن يحيى بن عروة عن أبيه.

وإن كنت مغلوبا تنكست صاغرا فما أنت فى الأوثان بالسيد الرب

قال: فاخذوا الصنم فردوه على حاله. فلما استوى هتف بهم بصوت جهير وهو يقول:

تـردى لمـولـود أنـارت بـنـوره جميع فجاج الأرض بالشرق والغرب
وخـرت له الأوثان طُرًّا فـأرعـدت قلوب ملوك الأرض طرا من الرعب
ونار جميع الأرض باخت وأظلمت وقد بات شاه الفرس فى أعظم الكرب
وسارت عن الكهان بالغيب جنها فـلا مـخـبـر منهم بحق ولا كـذب
فـيـا لقـصى ارجـعـوا عن ضـلالكم وهبـوا إلى الإسـلام والمنزل الرحب

فلما سمعوا ذلك خلصوا نجيا. فقال بعضهم لبعض: تصادقوا .. إلى آخر ما ذكره ابن القطان فى هذا الخبر. وفى آخره: عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه خرج يطلب الدين حتى لقى بالحيرة – بلد بالعراق – راهبا. فاخبره بالذى يطلب. فقال: إنك لتطلب دينا ما تجد ما يحملك عليه. ولكن قد أظل زمان نبى يخرج من بلدك بدين الحنفية. فلما قال له ذلك رجع يريد مكة. فعدت عليه لخم. فقتلوه [1] أ. هـ.

لقد حملت به آمنة تسعة أشهر كاملة وهى ترفرف عليها أعلام السعادة مما حدثت به فى نومها وما رأته فى يقظتها من أمر الحبيب المنتظر وقلبها يعتصر ألما على عبد الله الذى لم تكتحل عيناه برؤية ولده سيد الأنام ﷺ.

ولما تمت أشهر حمله وضعته ﷺ كاملا مسرورا مختونا ساجدا لربه عز ولج. ففرت به عيناها ﷺ ورجت أن يجعله الله تعالى لها عوضا عن أبيه الذى لم تكتحل برؤيته عيناه ولكن الله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد. وما كانت تدرى هى الأخرى أنها سوف تلحق أباه بعد أربع سنوات وتترك ابنها وحيدا فريدا فى رعاية ربه عز وجل.

---

(١) ذكره السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/٨٨).

(جـ) إيمان عبد الله وآمنة ونجاتهما

إن هذه القضية مثار خلاف بين العلماء. وهى قضية مهمة وترجع أهميتها لاتصالها بسيد الأنام ﷺ. لذلك تكلم فيها من العلماء ثلاث فرق:

الأولى: وهى الفرقة الأعظم والأكثر عددا قالوا:

إن أبوى النبى ﷺ مؤمنان وهما من أهل الجنة.

قال العلامة المحقق الشيخ أحمد بن حجر الهيثمى - رحمه الله - فى «المنح» إن آباء النبى ﷺ - غير الأنبياء - وأمهاته إلى آدم وحواء ليس فيهم كافر. لأن الكافر لا يقال: أنه مختار ولا كريم ولا طاهر بل نجس كما فى آية ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

وقد صرحت الأحاديث السابقة بأنهم مختارون وأن الآباء كرام والأمهات طاهرات. وأيضا فهم إلى إسماعيل - عليه السلام - كانوا من أهل الفترة وهم فى حكم المسلمين بنص الآية الآتية. وكذا من بين كل رسولين وأيضا قال تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩] على أحد التفاسير فيه أن المراد تنقل نوره من ساجد إلى ساجد.

ولذا أجمع أهل الكتابين على أن «آزر» عم إبراهيم - عليه السلام - واسم أبيه «تارح» كآدم. أو تيرح أو غير ذلك كما سيأتى. وحملوا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤] على المجاز والعرب تسمى العم أبا. وقد جاء فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [البقرة: ١٣٣] مع أنه عم يعقوب. بل لو لم يجمعوا على ذلك وجب تأويله بهذا جمعا بين الأحاديث. فمن أخذ بظاهر الآية كالبيضاوى وغيره فقد تساهل واستروح قال: وحينئذ فهذا صريح فى أن أبوى النبى ﷺ آمنة وعبد الله من أهل الجنة لانهما أقرب المختارين له ﷺ وهذا هو الحق. بل فى حديث صححه غير واحد من الحفاظ ولم يلتفتوا لمن طعن فيه: أن الله تعالى أحياهما له فآمنا به خصوصية لهما وكرامة له ﷺ.

وقال خاتمة المحققين التقى الصالح الشيخ إبراهيم خليل اليمنى الزبيدى فى كتابه «المنهج الأعدل فى شرح مولد الأهدل» أقول. وقد نصر هذا القول وأيده غير واحد من الجهابذة النقاد كالتقى السبكى والجلال السيوطى وغيرهما فلا مرية فى حقيته .. أ . هـ.

ويقول الشيخ جعفر البرزنجى [1] معلقا على قول ابن حجر:

وممن نصر هذا القول الإمام المحقق والسهام المدقق مجدد المائة الحادى عشرة جدنا المرحوم السيد محمد البرزنجى وألف فيه رسالة سماها: (سداد الدين وسداد الدَين فى إثبات النجاة والدرجات للوالدين) وهى تزيد على نحو خمس عشرة كراسة وأتى فيها بما يشفى قلب الحبيب ويقصم ظهر المعاند الغضيب.

قال: وقد قال بنجاتهما جمع كثير وجم غفير ممن جمع بين الحديث والفقه والأصول كابن العربى وابن شاهين وابن المنير وابن ناصر الدمشقى والإمام الفخر الرازى والسبكى والقرطبى والآبى والمحب الطبرى وابن سيد الناس والشرف المناوى ونقله سبط ابن الجوزى فى كتابه «مرآة الزمان» عن جماعة. والحافظ ابن حجر العسقلانى والإمام حافظ الدين الحنفى صاحب جامع السنوك فى شرح مناقب الإمام أبى حنيفة – رضى الله عنه –.

قال: وممن استهتر بهذه المسألة. خاتمة الحفاظ الإمام المجتهد مجدد المائة التاسعة أبو الفضل جلال الدين السيوطى فإنه ألف فى المسألة: خمس تآليفات [2] وبسط القول فيها. والإمام العلامة المحقق الشهاب أحمد بن حجر الهيثمى المكى فإنه بسط القول فيها بعض البسط فى «النعمة الكبرى» وفى «الفتاوى» وفى «شرح الهمزية» وأتى فيها بالعجب العجاب. أ هـ.

وللعارف بالله العلامة الشيخ عبد الله البسنوى الرومى شارح فصوص الحكم

---

(١) الكواكب الدرية: ١١٣.

(٢) هى: أحاديث فى نجاة أبوى النبى ﷺ. التعظيم والمنة فى أن أبوى النبى فى الجنة رسالة فى والدى الرسول – سبل النجاة فى والدى النبى. مسالك الحنفا فى والدى المصطفى.

لابن عربى والمتوفى سنة ١٠٥٤ هـ كتابا قيما سماه «مطالع النور السنى عن طهارة النسب العربى» وهو من أجل وأقيم الكتب المؤلفة فى شئون النبى ﷺ دالما على جلالة مؤلفه ومعرفته بعلو قدره عليه الصلاة والسلام. وقد أثبت فيه بالحجة والسايد والأدلة القاطعة على إيمان أبوى النبى ﷺ عبد الله وآمنة وأنهما ناجيان ومن أهل الجنة. إذ هما من المسلمين الذين أخبر الله بالآيات عن دعوة إبراهيم عند رفعه القواعد من البيت وشهد بها فى حق إبراهيم. وبالآيات الدالة على بقاء ملة إبراهيم فى ذريته وعدم اندراسها إلى بعثة سيدنا محمد ﷺ. ثم استدل بالأحاديث التى دلت على طهارة نسبه ﷺ إلى آدم عليه الصلاة والسلام. وقد دافع عن صحة حديث إحياء أبويه له وإيمانهما به ﷺ ثم رد على المخالفين ودحض حجتهم.

قال رحمه الله تعالى: فإذا ثبت امتداد الإسلام وعدم انقطاعه من إبراهيم عليه السلام إلى زمان بعثة نبينا ﷺ وثبت وجود الأمة المسلمة التى بعث فيها منها. ثبت توحيد أبيه عبد الله وإسلامه وتوحيد أمه آمنة وإسلامها على طريق أخرى لأنه لا يتصور وجوده فيهم ومنهم. وهما من ملة دونهم. ولما ثبت كونه منهم بحسب القرابة الطينية ثبت كونه منهما وكونهما أمة مسلمة بحسب القرابة الرحيمة على طريق أخرى لأن مادة جسمه البشرى ما تعينت إلا فى أبيه ﷺ وما كملت صورته البشرية إلا فى رحم أمه: فثبت كونهما أمة مسلمة. كما قال تعالى فى حق إبراهيم عليه السلام (إن ابراهيم كان أمة قانتا) ولو لم يوجد مسلم غيرهما وقال: لا يخلق – الله – محمدا من نطفة مشرك أبدا ولا يحصل الزوجية بين مشرك ومشركة ليكون هو نتيجة عنهما ولا يريد أن تحمل مشركة من نطفة مشرك محمدا ﷺ الذى هو رحمة الوجود ومفتاح خزائن الكرم والجود لأنه يخالف حكمته ولا تحجير عليه ولا مجبر له على ذلك حاشا لأنه مستخرج من حضرة الألوهية على الصورة الجمعية الأسمائية ولأن وجوده ﷺ قصدا خاصا لله تعالى لإظهار أحكام ربوبيته وانتشار رأفته على بريته. بخلاف حال سائر الكمل من الأولياء والرسل فافهم.

ثم ذكر فى المطلع الرابع من كتابه بعض الأحاديث التى تدل على طهارة نسب النبى ﷺ إلى آدم عليه السلام. نذكر منها:

أخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذى كنت فيه) وأخرج البيهقى فى دلائل النبوة عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «ما افترق الناس فرقتين إلا جعلنى الله فى خيرهما فأخرجت من بين أبوى فلم يصبنى شئ من عهد الجاهلية».

وأخرج البيهقى فى سننه (ما ولدنى من سفاح الجاهلية شئ ما ولدنى إلا نكاح الإسلام).

وأخرج الطبرانى وأبو نعيم وابن عساكر (خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى ولم يصبنى من سفاح الجاهلية شئ) وأخرج مسلم والترمذى وصححه عن واثلة بن الاسقع قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل كنانة واصطفى من كنانة قريشا واصطفى من قريش بنى هاشم. واصطفانى من بنى هاشم).

قال جلال الدين السيوطى: اعلم أن الأحاديث المذكورة تصرح أكثرها لفظا وكلها معنى أن آباء النبى ﷺ وأمهاته إلى آدم وحواء مطهرون من دنس الشرك والكفر ليس فيهم كافر لانه لا يقال فى حقه مختار ولا طاهر ولا مصغى بل يقال: نجس قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ فوجب أن لا يكون فى أجداده مشرك.

مازال منقولا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الطاهرة. وما زال ينقل نوره من ساجد إلى ساجد كما قال الله تعالى ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ ا. هـ.

وقال السيوطى أيضا فى كتاب مسالك الحنفا: وقد أطبقت أئمتنا الأشاعرة من أهل الكلام والأصول والشافعية الفقهاء على أن من مات ولم تبلغه الدعوة. يموت ناجيا. قال: وفى قوله ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ هذه الآية أطبقت أئمة أهل السنة على الاستدلال بها فى أنه لا تعذيب قبل البعثة. وردوا بها على المعتزلة ومن وافقهم فى تحكيم العقل أ.هـ.

وخرج ابن جرير وابن أبى حاتم فى تفسيره عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ قال: إن الله ليس بمعذب أحدا حتى يسبق إليه من الله تعالى خبر وتأتيه من الله بينة.

ويقول الشيخ عبد الله البسنى: وإن اعتربت الآيات التى دلت على دعوة إبراهيم عليه السلام لذريته بالإسلام وبقاء ملته فى عقبه إلى بعثة نبينا محمد ﷺ من ذريته وعدم زوال ملته والأحاديث التى دلت على طهارة نسبه إلى آدم. فأبواه أولى بذلك وأحق من الكل لظهوره منهما على الطهارة الأصلية والنزاهة الذاتية الكلية التى اقتضت كونه مظهرا للصورة الإلهية والجمعية الذاتية واقتضت نزول النسخة القرآنية الجامعة لجميع الكتب الإلهية والحاوية لجميع الكمالات والأخلاق الكمالية الإنسانية على قلبه ﷺ. أ. هـ.

وإذا تقرر هذا فنقول: اعلم أنه لم يثبت لا من الكتاب ولا من السنة ولا من الإجماع ولا من القياس دليل على أن الأبوين الشريفين فى النار ولم يذكر ذلك أحد من الأئمة المجتهدين ولا من أتباعهم. وليس هذا من المسائل التى تتعلق بالاعتقاد الواجب فى شريعتنا. بل الذى يجب اعتقاده واعتماده بعدما أوردنا ما سبق. أن والدى النبى ﷺ من أهل التوحيد وأنهما ناجيان غير معذبين وأنهما من أهل الجنة وأنهما مبرآن من عيب الجاهلين لأنهما أبوان لخير البرية ﷺ.

وأما الفريق الثانى: فقد آثر السلامة وفوض العلم بحالهما إلى الله تعالى.

وأما الفريق الثالث: فقد قال أصحابه بكفرهما وأنهما فى النار، واستدل

هؤلاء ببعض الآيات وبالأحاديث الواردة والتى فهموا منها ذلك قال البرزنجى يرد على هؤلاء:

وأما الأحاديث الدالة على كفرهما وأنهما في النار كحديث «ليت شعرى ما فعل أبواى فنزلت ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ وحديث أنه استغفر لأمه فضرب جبريل في صدره وقال: لا تستغفر لمن مات مشركا. وحديث: أنه نزل فى أمه ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

وحديث أنه قال لابنى مليكة: «أمكما فى النار» فشق عليهما فدعاهما فقال: «إن أمى مع أمكما» فقد أجاب الجلال السيوطى بأن غالب ما يروى فى ذلك ضعيف. ولم يصح فى أم النبى ﷺ سوى حديث: «أنه أستأذن فى الاستغفار لها فلم يؤذن له» ولم يصح أيضا فى أبيه إلا حديث مسلم خاصة. وسياتى الجواب عنهما.

وأما الأحاديث التى ذكرت فحديث: ليت شعرى ما فعل أبواى فنزلت الآية.

لم يخرج فى شئ من كتب الحديث المعتمدة وإنما ذكر فى بعض التفاسير بسند منقطع لا يحتج به ولا يعول عليه.

ثم قال: ثم إن هذا السبب مردود بوجوه أخر من جهة الأصل والبلاغة وأسرار البيان. وذلك أن الآيات من قبل هذه الآية ومن بعدها كلها في اليهود من قوله تعالى ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ ولهذا اختتمت القصة بمثل ما صدرت به. وقوله تعالى ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ الآيتين فتبين أن المراد بأصحاب الجحيم كفار أهل الكتاب وقد ورد ذلك مصرحا به فى الأثر.

والجواب عن حديث الاستئذان فى الاستغفار لأمه على التسليم بصحته

على أنه ليس فيه إلا النهى عن الاستغفار فقط دون الكفر أو الكون فى النار فمن أخذ بظاهره كالبيضاوى وغيره فقد تساهل واستروح.

أما أولا: فلأنه لا يلزم من عدم الإذن فى الاستغفار كفرهما بدليل أنه كان فى صدر الإسلام ممنوعا من الصلاة على من عليه دين وهو مسلم فلعله كانت عليها تبعات غير الكفر فمنع من الاستغفار لها بسببها قاله السيوطى.

وأما ثانيا: فلأنه قد عارضته أدلة أرجح منه فى عدم تعذيب أهل الفترة من الآيات والأحاديث واتفق عليها علماء الأصول والكلام فوجب إلغاء هذا أو تأويله وتقديم تلك الأدلة كما هو مقرر فى الأصول ولا يمكن إلغاء تلك الأدلة لقطعيتها.

وأما ثالثا: فلأن الأحاديث الواردة فى الأبوين الشريفين منسوخة بقوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ وأمثاله من الآيات.

كما أجابوا بذلك عن الأحاديث الواردة فى أطفال المشركين أنهم فى النار مع كثرتها بقوله تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

ومن هنا علم الجواب عن حديث مسلم الوارد فى أبيه فتنبه.

ثم رأيت المحقق ابن حجر فى (النعمة الكبرى) قد جمع بين أحاديث الاستغفار والإحياء بأن الله تعالى منعه من ذلك حتى يعظم المنة عليه بإحيائهما وإيمانهما وتصديقهما فتنقلا من حال أهل الفترة – الذى لا يخلو عن تفضيل – إلى حال الإيمان الذى هو أكمل الأحوال وأعلاها. وبكاؤه ﷺ يحتمل أنه لفوات هذه المرتبة فمن الله عليه بتحصيلها لهما. أ. هـ.

وأقول: إن منع النبى ﷺ من الاستغفار لأمه لا يدل على كفرها. وإنما كان المنع لأن أمه ليست من أمته كونها ماتت قبل بعثته ﷺ. وهو لم يؤمر بالاستغفار إلا لمن بعث فيهم وآمنوا برسالته ﷺ. أما هى فمن أهل الفترة. وأهل الفترة ناجون.

وأما ما نسب إلى الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه من القول بأنهما ماتا على الكفر وعمه أبو طالب مات كافرا.

فإن ابن حجر الهيثمى فى فتاويه قد بين أن هذا القول لأبى حنيفة محمد ابن يوسف البخارى وليس لأبى حنيفة النعمان إمام المذهب الحنفى فجاءت الشبهة من تشابه اسميهما.

وقال الشيخ عبد الله البسنوى فى المطلع السادس من كتابه المشار إليه سلفا:

يرد على من استدل بحديث «مسلم» على أنهما فى النار وعدم جواز الحكم به على ذلك روى مسلم عن أنس رضى الله عنه: أن رجلا قال: يا رسول الله. أين أبى؟

قال «فى النار» فلما قام دعاه. قال: «إن أبى وأباك فى النار».

روى مسلم أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه ﷺ أستأذن فى الاستغفار لأمه. فلم يؤذن له.

اعلم أن لفظة قوله: «إن أبى وأباك فى النار» لم يتفق على ذكرها الرواة وإنما ذكرها حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضى الله عنه. وهى الطريق التى رواها مسلم منها، وقد خالفه معمر عن ثابت. فلم يذكر أن أبى وأباك فى النار. ولكن قال: «إذا مررت بقبر كافر فبشره بالنار».

وهذا اللفظ لا دلالة فيه على والده ﷺ بأمر البتة.

وأخرج البزار والطبرانى والبيهقى من طريق إبراهيم بن سعد عن الزهرى عن عامر بن سعد عن أبيه: أن أعرابيا قال: يا رسول الله. أين أبى؟ قال «فى النار» قال: فأين أبوك؟ قال: «حيث ما مررت بقبر كافر فبشره بالنار» .. وهذا إسناد على شرط الشيخين. فتعين الاعتماد على هذا اللفظ وتقديمه على غيره. وقد زاد الطبرانى والبيهقى فى آخره قال: فأسلم الأعرابى بعده. فقال: (لقد كلفنى

رسول الله ﷺ تعبا ما مررت بقبر كافر إلا بشرته بالنار) فهذه الزيادة أوضحت بلا شك أن هذا اللفظ العام هو الذى صدر منه ﷺ . وأن الأعرابى بعد إسلامه رأى ذلك أمرا مقتضيا للامتثال . فلم يسعه إلا امتثاله ولو كان الجواب باللفظ الأول لم يكن فيه أمر بشئ البتة . فعلم أن اللفظ الأول من تصرف الراوى . وغيره أثبت منه . كذا ذكره السيوطى .

وقال – السيوطى – أيضا : لو فرض اتفاق الرواة على اللفظ . كان معارضا بما تقدم من الأدلة . والحديث الصحيح إذا عارضته أدلة أخرى أرجح منه . وجب تأويله وتقديم تلك الأدلة عليه كما هو مقرر فى الأصول .

وبهذا الجواب الآخر يجاب عن حديث عدم الإذن فى الاستغفار لأمه على أنه يمكن فيه دعوى عدم الملازمة . بدليل أنه كان فى صدر الإسلام ممنوعا عن الصلاة على من عليه دين وهو مسلم فلعلها كانت عليها تبعات غير الكفر فمنع من الاستغفار لها بسببها .

وقال البسنوى أيضا : فلما طلب ﷺ الإذن بالاستغفار لأمه علم أنها قبضت فى الإسلام عى الإيمان لأنه ﷺ لا يطلب المحال ولا الأمر الذى لا يرضى به ربه . فمجرد طلبه الإذن بالاستغفار لها فيه كفاية فى الدلالة على سعادتها سواء أذن فى الاستغفار لها أم لم يؤذن . أو استغفر لها أو لم يستغفر فلا يستدل مسلم بحديث (مسلم) على أن أبويه من أهل النار أ . هـ.

والذى أعتقده وأومن به – طول حياتى – أن والدى النبى ﷺ ناجيان وأنهما فى الجنة وما ترددت فى هذا أبدا لأمرين أساسيين هما :

الأول : أن أبوى النبى ﷺ يدخلان فى الرحمة ﴿ **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ** ﴾ وسوف يرضيه ربه فى أصوله وفروعه وأمته ونسائه .

الثانى : هما من أهل الفترة . وأهل الفترة ناجون بإجماع علماء الأصول والعقيدة والله تعالى أعلم بالصواب .

تحذير ورجـــاء

روى أحمد فى مسنده والترمذى فى سننه والطبرانى واللفظ له: قال رسول الله ﷺ: «لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات» وروى السهيلى فى الروض الأنف الحديث «لا تسبوا مضر ولا ربيعة فإنهما كانا مؤمنين».

وأخرج وكيع بسنده عن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا ربيعة ولا مضر فإنهما كانا مسلمين» فالحذر الحذر من ذكر أبوى النبى ﷺ بنقص قد يؤذيه ﷺ. وقد منع العلماء والمحققون من إطلاق الكفر عليهما أو كونهما فى النار.

روى أن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه حين قال له كاتبه أصلح الله الأمير ما على من كان أبوه كافرا. كان أبو النبى ﷺ مشركا. فقال عمر: آه ثم سكت. ثم رفع رأسه ثم قال: اقطع لسانه؟ أقطع يده ورجله؟ أضرب عنقه؟ ثم قال: لا تلى لى شيئا ما بقيت ثم عزله عن ولايته عزل الأبد. وبمثل عمر بن عبد العزيز يقتدى فى الدين وقال جلال الدين السيوطى: وجدت بخط الشيخ كمال الدين الشمنى الحنفى ما نصه: سئل القاضى أبو بكر بن العربى – المالكى الفقيه الأصولى المحدث المفسر – عن رجل قال: إن أبا النبى ﷺ فى النار.

فأجاب بأنه ملعون لأن الله تعالى قال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا**﴾ ولا أذى أعظم من أن يقال عن أبيه أنه فى النار.

وقال السهيلى فى الروض الأنف بعد إيراده حديث مسلم: وليس لنا أن نقول ذلك فى أبويه لقوله ﷺ «لا تؤذوا الأحياء بسبّ الأموات» وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ..**﴾.

وقال الباجى: لا يجوز أن تؤذى النبى ﷺ بمباح ولا غيره وقال العلامة ابن حجر الهيثمى فى فتاويه: وإياك أن يسبق لسانك إلى غير ما قلناه – يعنى من

النجاة – فتكون ممن آذى رسول الله ﷺ فتستحق اللعنة بنص القرآن كما قدمناه عن ابن العربى. وإذا كان رسول الله ﷺ قال لما اشتكى إليه عكرمة بن أبى جهل قول الناس هذا ابن أبى جهل (لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات) هذا مع كونه أبا جهل. فما ظنك بمن يتكلم فى آبائه ﷺ وهو ما قرره أيضا فى كتابه «النعمة الكبرى .فهذه تصريحات العلماء ومقولاتهم التى تنهى عن ذكر آباء النبى ﷺ بما يكره من نسبتهما إلى الكفر والحكم عليهما بدخول النار.

وأعتقد أنه لا يجوز لمسلم أن يتفوه بالقبيح من القول فى أبوى النبى ﷺ. لأن ذلك يتنافى مع ادعاء محبة الرسول ﷺ ولولا مخافة التطويل لذكرنا العديد من مقالات العلماء وتقريراتهم. ونكتفى بهذا القدر لمن كان له قلب ملئ بحب الله وحب رسوله ﷺ وأختم هذا القول بذكر ما كتبه إلى أخ فاضل [1] محبّ لله ولرسوله ﷺ ونصه:

(بسم الله الرحمن الرحيم. وصلاة الله وسلامه على سيد المرسلين – أشهد الله أنى رأيت سيدتنا وأمنا السيدة آمنة بنت وهب وهى تخرج من داخل مستطيل يعلو على الأرض بحوالى متر تقريبا إلى سهل فسيح. وهو سهل الأنوار والسعادة وقد انعكس هذا السهل على كل من حوله وفيه علمت أن هذه هى سيدتنا آمنة بنت وهب.

وأشهد الله أن سيرة سيدتنا عليها رضوان الله لم تخطر على بالى منذ بضع سنين ولم ترد فى أى حديث مع شخص آخر معى منذ أمد بعيد. والله على ما أقول شهيد) فهذه رؤيا صادقة منّ الله تعالى عليه بها. وهو رجل نثق فى معرفته ودينه وصدقه وإخلاصه. أرجوا الله تعالى أن يديم عليه نعمة التوفيق والهداية والله المستعان. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وبعد تسجيل هذه الرؤيا – والتى اعتبرتها خاتمة الحديث عن هذا المسألة –

---

(١) الأخ الحاج محمد محمود هاشم بارك الله فيه.

أحسست برغبة فى النوم. فنمت. فرأيت فى نومى السيدة: آمنة فى صورة طيبة يعلوها البهاء. ومعها غلمان صغار. وعلمت من خلال الرؤيا أنها كانت على فطرة الإسلام وماتت عليها وعرفت أن هؤلاء الصبيان هم ولدان أهل الجنة. فقمت من نومى مستبشرا. اللهم أرضى نبيك وحبيبك المصطفى ﷺ فى أبويه وفى أهله وذويه وفى أمته وفى ذريته. كما وعدته ﷺ إنك نعم المولى ونعم النصير.

(١) خاتم النبيين ﷺ

سيدنا محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين جميعا. ختم الله تعالى به النبوة والرسالة. وختم بكتابه الكتب السماوية. فهو مسك الختام.

إنه آخر المرسلين وجودا ورسالة. وأولهم رتبة ومنزلة فهو سيد ولد آدم فى الدنيا وفى الآخرة. اصطفاه ربه عز وجل من المصطفين الأخيار. واختاره من أعلى سلالات بنى آدم قال الله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وروى أن النبى ﷺ قال: (إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه. وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة. وجعلم بيوتا فجعلنى فى خيرهم بيتا. فأنا خيركم بيتا وخيركم نفسا) [رواه أحمد].

وروى أن رسول الله ﷺ قال: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدى لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وما من نبىٍّ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى) [رواه الترمذى].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال فى قوله تعالى: ﴿ **وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ** ﴾ [الشعراء: ٢١٩] قال: من نبى إلى نبى حتى أخرجك نبيا) [أخرجه البزار وأبو نعيم وابن سعد بسند صحيح].

وقال الإمام جعفر بن محمد (الصادق) رضى الله عنهما: علم الله عجز

خلقه عن طاعته. فعرفهم ذلك. لكى يعلموا أنهم لا ينالون الصفو من خدمته. فأقام بينهم وبينه مخلوقا من جنسهم فى الصورة وألبسه من نعته الرأفة والرحمة وأخرجه إلى الخلق سفيرا صادقا وجعل طاعته. طاعته. وموافقته. موافقته فقال تعالى: ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾ [النساء: ٨٠] وقال ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. أ.هـ.

(٢) نسبه الشريف ﷺ

هو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. الذى ينتهى نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهم السلام.

وأمه: آمنة بنت وهب من بنى زهرة والذى يتصل نسبها بهذا النسب الشريف.

فكل آبائه وأجداده ﷺ هم من السادة الأشراف ونسبه من أشرف الأنساب ولم يبعث الله نبيا إلا فى أشرف نسب. روى البخارى فى الصحيح: لما سأل (هرقل) ملك الروم أبا سفيان عن رسول الله ﷺ قال: كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب. فأجابه هرقل بقوله (كذلك الرسل تبعث فى أنساب قومها) يعنى فى أكرم قومها حسبا وأشرفها قبيلة.

وقد كانت ولادته ﷺ ولادة الطهر والشرف ولم يصبه من عهر الجاهلية شئ. لقد كان بنكاح صحيح يشبه نكاح الإسلام.

قال ﷺ: (إنى خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح) وفى رواية عائشة (ولدت من نكاح غير سفاح) وقال ﷺ (إن الله اصطفى من ولد ابراهيم. إسماعيل واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة واصطفى من بنى كنانة قريشا واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم) وفى بعض الروايات (فأنا خيار من خيار من خيار) رواه مسلم.

وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله تعالى: ﴿من أنفسكم﴾ قال: (نسبا وصهرا وحسبا ليس فى آبائى من لدن آدم سفاح كلنا نكاح) السفاح: الزنا.

قال ابن الكلبى – محمد بن السائب المفسر النسابة – كتبت للنبى ﷺ خمسمائة أم. فما وجدت فيهن سفاحا ولا شيئا مما كان عليه الجاهلية.

(٣) ولادته ﷺ:

ولد النبى ﷺ فى يوم الإثنين. الثانى عشر من ربيع الأول عام الفيل (سنة ٥٧٠ ميلادية).

قال ابن كثير فى البداية والنهاية: (وهذا ما لا خلاف فيه أنه ولد يوم الإثنين).

وروى أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: (ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين واستنبئ يوم الإثنين وخرج مهاجرا من مكة إلى المدينة يوم الإثنين وتوفى يوم الإثنين) وأما كونه ولد عام الفيل فلا خلاف فيه. ولكنهم اختلفوا فى اليوم والشهر. والجمهور على أنه فى الثانى عشر من ربيع الأول. كما نص عليه ابن إسحاق فى السيرة.

وروى عن ابن عباس أنه قال: (ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الإثنين. الثانى عشر من شهر ربيع الأول. وفيه عرج به إلى السماء – فيه نظر – وفيه هاجر وفيه مات).

قال فى البداية والنهاية: وهذا هو المشهور عند الجمهور.

لقد وضعته أمه بعد تمام حمله. وقد صاحب حمله ﷺ ووضعه الإرهاصات الدالة على نبوته وعظم شأنه وقد أتتها البشائر الواحدة تلو الأخرى بما أثلج صدرها ورأت فى القادم ﷺ عوضا لها عن فقدها لأبيه الذى خطفه الموت قبل أن تكتمل به سعادتها التى انتزعت منها بعد أربعين يوما من زواجها

لم تحظ منها فى معيته سوى عشرة أيام فقط رحل بعدها فى قافلة التجارة ولم يعد إليها إلا خبر وفاته، فكان الوليد ﷺ أكبر وأعظم عوض لها ومسح الله به دموعها التى لم تجف حزنا على زوجها الذى لن تكتحل عيناه برؤية ولده التى عرفت من بشرياتها أن ابنه سيكون له شأن. ولكن ما هذا الذى ينتظره. وما حقيقته؟ إنها لا تدرى وما علمت أنها أم لسيد بنى آدم. رحمة الله للعالمين.

ولما وضعته ﷺ طار الخبر إلى جده: عبد المطلب الذى فتت الحزن كبده حزنا على ولده – فجاء إليها مسرعا. ولم تكد عيناه تقع على المولود حتى ذهب حزنه. واستبدله فرحا وسرورا فحمله على يديه وذهب به إلى بيت الله الحرام والسعادة تغمر قلبه وطاف به حول البيت.

ويسأله من حول الكعبة: ماذا سميت ولدك؟

إنى سميته محمدا. رجاء أن يحمد فى السماء ويحمده أهل الأرض وكذلك فرح بمولده أعمامه وعماته. حتى أن عمه أبا لهب لما بشرته جاريته بولادته. أعتقها حرة لوجه الله تعالى. سبحان الله تعالى فما كان أبو لهب ساعتئذ يدرى أنه سوف يكون بعد أربعين عامًا من ألد أعداء الوافد الجديد ﷺ حتى أنزل الله تعالى فيه قرآنا يتوعده بالعذاب الأليم ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ وعاد به عبد المطلب إلى أمه بعد أن طاف به حول البيت الحرام وطلب منها أن ترعاه وأن تحافظ عليه. وما كان عبد المطلب يدرى أن أمر رعايته والعناية به ليس متروكا لأهل الأرض وإنما هو فى عناية الله تعالى ورعايته ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾. ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾.

واحتضنته السيدة آمنة وهى تحلم وتتمنى أن تراه رجلا كبيرا وشابا فتيا يشار إليه بالبنان كسائر فتيان أهل مكة وخيرة شبابها وما كان يقع فى مخيلتها ما آل إليه أمر ولدها. فلم يكن سيدا لشباب مكة فحسب. وإنما هو سيد العالمين. المبعوث رحمة للعالمين ﷺ.

(٤) أسماؤه ﷺ :

هو سيدنا محمد ﷺ ويكنى (أبا القاسم) و(أبا إبراهيم) (تسموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى) ﷺ .

وله ﷺ عدة أسماء وصفات عدها البعض أكثر من مائتى اسم وصفة وردت فى القرآن وفي السنة وذكر البعض أن الله عز وجل قد خلع عليه من أسمائه وصفاته سبعين اسماً وصفة، وأقول إن لأسمائه ﷺ حقيقة تخالف حقيقتها بالنسبة لله تعالى . فالرب . رب والنبى نبى . والفارق بين الخالق والمخلوق لا حدود له ولا نهاية له إن لله عز وجل الكمال المطلق فى أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى وتعدد أسماء وصفات النبى ﷺ إنما هو للتشريف ورفع الرتبة وعلو المنزلة . فافهم . إن تعدد الأسماء يدل على شرف المسمى وقد ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية من أسمائه ﷺ محمد وأحمد والماحى الذى يمحو الله به الكفر . والعاقب الذى ليس بعده نبى والحاشر الذى يحشر الناس على قدميه . ونبى الرحمة ونبى التوبة ونبى الملحمة . والفاتح . وطه ويس . وخاتم النبيين وقال القاضى عياض فى الشفا : وقد سماه الله تعالى فى كتابه محمدا وأحمدا . فمن خصائصه تعالى له أن ضمن أسماءه ثناءه . وطوى – كتم وأخفى – أثناء ذكره عظيم شكره .

ويقول : فى هذين الإسمين من عجائب خصائصه وبدائع آياته فن آخر وهو أن الله جل اسمه : حمى أن يسمى بهما أحد قبل زمانه أما أحمد الذى أتى فى الكتب وبشرت به الأنبياء . فمنع الله تعالى بحكمته أن يسمى به أحد غيره . ولا يدعى به مدعو قبله حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب أوشك .

وكذلك محمد أيضا لم يسم به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبيل وجوده ﷺ وميلاده أن نبيا يبعث اسمه : محمد . فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك . رجاء أن يكون أحدهم هو . والله أعلم حيث يجعل رسالاته .

وهم: محمد بن أحيحه بن الجُلاح الأوسى. ومحمد بن مسلمة الأنصارى ومحمد بن براء البكرى ومحمد بن سفيان بن مجاشع ومحمد بن حمران الجعفى ومحمد بن خزاعة السلمى. لا سابع لهم.

ثم حمى الله كل من تسمى به أن يدعى النبوة أو يدعيها أحد له أو يظهر عليه سبب يشكك أحدا فى أمره حتى تحققت السمتان له ﷺ ولم ينازع فيهما.

هذا وقد أورد القاضى والسيوطى والقسطلانى وغيرهم للنبى ﷺ أسماء وأوصاف كثيرة فى كتبهم التى تعدد خصائصه ﷺ (١).

(٥) مرضعاته ﷺ:

أرضعته ﷺ أمه (آمنة بنت وهب) و(ثويبة الأسلمية) و(أم أيمن الحبشية) و(خولة بنت المنذر) وأكثرهن إضاعا له (حليمة السعدية) رضى الله عنها.

قدمت حليمة إلى مكة مع عشر نسوة من بنى سعد إلى مكة المكرمة يلتمس الرضعاء فى سنة شهباء شديدة المجاعة. فعرض عليهن ﷺ لإرضاعه. فما قبلته امرأة منهن لأنه يتيم وجاءت حليمة إلى جده عبد المطلب. تطلب رضيعا فقال لها: إن عندى غلاما يتيما وقد عرضته على نساء بنى سعد فأبين أن يأخذنه. فهل لك أن ترضعيه فعسى أن تسعدى به؟.

فعرضت الأمر على زوجها (الحارث بن عبد العزى) فقال لها (لا بأس عليك أن تفعلى فعسى أن يجعل الله لنا فيه خيرا وبركة) وهو ما كان بفضل الله تعالى.

تقول حليمة رضى الله عنها: فما هو إلا أن أخذته فجئت به رحلى فأقبل

---

(١) الشفا للقاضى عياض والمواهب للقسطلانى والخصائص الكبرى للسيوطى وسنذكر فيما بعد أسماءه بالتفصيل.

عليه ثدياى بما شاء من لبن فشرب حتى روى وشرب أخوه حتى روى وقام زوجى إلى شارفنا فإذا بها مملوءة لبنا. ثم شرب وشربنا حتى روينا فبتنا بخير ليلة. فقال زوجى: يا حليمة والله إنى لأراك أخذت نسمة مباركة. ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير والبركة.

ثم خرجنا راجعين فقطعت الركب بأتانى حتى ما يسبقنى أحد. فكلما مررت على صواجى قلن لى. يا حليمة. هذه أتانك التى خرجت عليها معنا؟ فأقول نعم والله إنها لهى. فيقلن والله إن لها لشأنا. قالت: حتى أتينا أرض سعد. وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها. فكانت غنمى تسرح ثم ترجع شباعا لبنا نحلب منها ما شئنا. وترجع أغنامهم جياعا ما فيها قطرة لبن. فلم يزل الله تعالى يرينا الخير والبركة حتى بلغ سنتين فكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان، فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاما جفرا قويا. [ذكره ابن إسحاق فى السيرة] وقال أيضا: إن بعض الصحابة سألوا رسول الله ﷺ فقالوا:

خبرنا عن نفسك قال: نعم. أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى عليهما السلام رأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام واسترضعت فى بنى سعد بن كعب. فبينا أنا فى بهم لنا أتانى رجلان عليهما ثياب بيض. معهما طست من ذهب مملوء ثلجا فاضجعانى فشقا بطنى ثم استخرجا قلبى فشقاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها. ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى إذا أنقياه رداه كما كان. ثم قال أحدهما لصاحبه زنهُ بعشرة من أمته فوزننى بعشرة فوزنتهم ثم قال زنه بمائة من أمته فوزننى بمائة فوزنتهم ثم قال: زنه بألف من أمته فوزننى بألف فوزنتهم. فقال: دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنهم. قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد قوى. وهو مروى فى الصحيحين إ.هـ.

والصحيح أن النبى ﷺ قد شق صدره أربع مرات مرة عند حليمة السعدية ومرة فى استقباله لشبابه ومرة عند رسالته والرابعة عند قيامه برحلتى الإسراء والمعراج.

ولما وقعت حادثة شق صدره خافت عليه حليمة. فعادت به إلى أمه بمكة فقالت لحليمة وزوجها: ما شأنكما لقد كنتما عليه حريصين؟ فقالا لها: لقد خشينا عليه التلف والحدث – وحدثاها بالقصة – فقالت: أخشيتما عليه الشيطان؟ كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل. والله إنه لكائن لابنى هذا شأن. ثم قالت: ألا أخبركما خبره؟ فقلنا: بلى، قالت: إنى لما حملت به ما حملت حملا قط أخف منه. فرُيت فى النوم حين حملت به كأنه خرج منى نور أضاءت له قصور الشام. ثم لما ولدته رأيت منه عجبا. رأيته رافعا رأسه إلى السماء معتمدا على يديه. كأنه يريد أن يتكلم. فدعا عنكما . أ. هـ.

هذا وقد أول بعض العلماء حادثة شق الصدر بتأويلات تخالف حقيقة الواقع. وما علموا أن ذلك أمر هين على من يقول للشئ كن فيكون ولو كانوا فى عصرنا هذا فماذا كانوا يقولون عن عمليات شق الصدر وزرع القلب. أليس شق صدر رسول الله ﷺ أمرا ممكنا وقد وقع كما روى فى صحيح الروايات.

ولما بلغ أربع سنوات أرجعته حليمة السعدية رضى الله عنها إلى أمه فبقى عندها فى رعاية جده: عبد المطلب وتحت عنايته فى كلاءة الله ورعايته وحفظه. ينبته الله نباتا حسنا لما هو مقبل عليه.

(٦) حياة الرسول ﷺ:

نشأ رسول الله ﷺ على اليتم والاغتراب وخشونة العيش وآلام الحياة. لقد توفى أبوه وهو فى بطن أمه فولد يتيما محروما من عطف الأب وحنانه.

ولما بلغ من العمر ست سنوات أخذته أمه (آمنة بنت وهب) وذهبت به إلى المدينة المنورة لزيارة بنى النجار أخوال أبيه فماتت وهى راجعه إلى مكة فى (الأبواء) مكان بين مكة والمدينة فعادت به جاريته التى ورثها عن أبيه (أم أيمن الحبشية) إلى مكة فاصبح رسول الله ﷺ يتيم الأبوين وهو ما زال بعد غلاما صغيرا. فكفله جده عبد المطلب عامين. وكان جده يحبه ويكرمه. كما كان

يدنيه منه ويجلسه على فراشه الذى كان يفرش له فى ظل الكعبة. ويقدمه بذلك على أعمامه فإذا حاول أحدهم منعه يقول لهم أبوهم: دعوا ابنى فوالله إن له لشأنا ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويلاطفه.

وهذا من عناية الله تعالى به وجميل إحسانه إليه ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ** ﴾.

وبعد وفاة جده عبد المطلب كفله عمه أبو طالب تنفيذا لوصية أبيه له وهو ابن أخيه. وقد عاش فى كفالة عمه حتى بلغ سن الشباب فاشتغل برعى الغنم - وتلك سنة الأنبياء - ثم تركها واشتغل بالتجارة. فذهب مع عمه فى قافلة التجارة إلى بلاد الشام وفى هذه الرحله تيقن أبو طالب بأن ابن أخيه سيكون له شأن ثم اشتغل بالتجارة فى مال السيدة: خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فكان يذهب مع قوافل التجارة يبيع ويشترى وكان يأتيها بالمال الوفير فعجبت به.

ولما بلغ عمره خمسة وعشرين عاما عرضت خديجة عليه - عن طريق إحدى النساء - أن يتزوجها. لقد اختارته دون غيره لما رأت فيه من أمارات الخير والبركة. فتزوجها رضى الله عنها. وكانت لبيبة عاقلة وثرية غنية ﴿ **وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ** ﴾ أى كنت فقيرا فأغنيناك بمال خديجة. وكان له منها الولد فلقد ولدت لـــه:

١ - (القاسم) وهو أكبر أبنائه وبه يكنى صلوات الله وسلامه عليه وقد عاش سنتين ثم مات.

٢ - (عبد الله) وهو الثانى من الذكور ومات صغيرا فى حياة النبى.

٣ - (زينب) وهى أكبر بناته تزوج منها أبو العاص ابن خالتها.

٤ - (رقية) تزوج منها عثمان بن عفان وتوفيت والمسلمون عائدون من بدر.

٥ - (أم كلثوم) تزوج منها عثمان بن عفان بعد وفاة رقية بعام.

٦ – (فاطمة الزهراء) صغرى بناته . وهى سيدة نساء العالمين تزوج منها على بن أبى طالب فولدت له الحسن والحسين ومحسن – مات رضيعا – وزينب (أم هاشم) وأم كلثوم (زينب تزوج منها عبد الله بن جعفر وأم كلثوم تزوج منها عمر بن الخطاب ماتت زينب ودفنت بمصر وماتت أم كلثوم ودفنت بالمدينة) وكل الذرية الصالحة من آل بيت النبوة هم أبناء على وفاطمة .

٧ – (إبراهيم) ولدته مارية القبطية . مات رضيعا قبل وفاة النبى ﷺ بستة أشهر .

وكل أبنائه ﷺ وبنائه ماتوا فى حياته إلا السيدة فاطمة الزهراء فهى التى ماتت بعد وفاته بستة أشهر رضى الله عنهم جميعا .

ولم يتزوج رسول الله ﷺ بأخرى إلا بعد وفاة السيدة خديجة رضى الله عنها .

لقد عاش رسول الله ﷺ مع السيدة خديجة رضى الله عنها عيشة هنية مرية . غمرته فيها بحنانها وأوسعته بما لها وأسعدته بما أنجبته من أولاده رضى الله عنهم .

وكانت تعد له ما يتجهز به للخلوة فى (غار حراء) مدة شهر فى السنة يتعبد فيه بعيدا عن الناس . ولكن ماذا كان شكل هذه العبادة وما كيفيتها؟ .

(أ) فى غار حراء :

قد اختلف العلماء : هل كان ﷺ قبل بعثته متعبدا بشرع من قبله أم لا؟

فقال جماعة : لم يكن متعبدا بشئ وهو قول الجمهور واحتجوا بأنه لو كان كذلك لنقل . ولما أمكن كتمه وستره فى العادة . إذ كان من مهم أمره . وأولى ما اهتبل به من سيرته . ولفخر به أهل تلك الشريعة . ولاحتجوا به عليه . ولم يؤثر شئ من ذلك .

وذهب طائفة إلى امتناع ذلك عقلا . قالوا : لأنه يبعد أن يكون متبوعا من عرف تابعا . . والتعليل الأول المستند إلى النقل أولى .

وذهب آخرون إلى الوقف فى أمره ﷺ وترك قطع الحكم عليه بشئ من ذلك. إذ لم يحل الوجهين منهما العقل وهذا مذهب الإمام أبو المعالى إمام الحرمين وكذا الغزالى والآمدى وقال آخرون: كان عاملا بشرع من قبله. ثم اختلفوا: هل يتعين ذلك الشرع أم لا؟ فوقف بعضهم عند التعيين وأحجم وجسر بعضهم على التعيين وصمم. ثم اختلفت هذه المعينة فيمن كان يتبع. فقيل نوح وقيل ابراهيم وقيل موسى وقيل عيسى (عليهم السلام).

فهذه جملة المذاهب فى هذه المسألة. والأظهر فيها ما ذهب إليه القاضى أبو بكر – الباقلانى – وأبعدها مذاهب التعيين. إذ لو كان شئ من ذلك لنقل – كما قدمناه – ولم يخف جملة. ولا حجة لهم فى أن عيسى عليه السلام آخر الأنبياء. فلزمت شريعته من جاء بعده. إذ لم يثبت عموم دعوة عيسى – فدعوته كانت لبنى إسرائيل – بل الصحيح أنه لم يكن لنبى دعوة عامة إلا لنبينا ﷺ. أ.هـ. ما لخصه القسطلانى من كلام القاضى عياض فى الشفا ثم أتبعه بقوله: وهو كلام حسن بديع. لكن قوله: فهذه جملة المذاهب. فيه نظر. لأنه بقى منها شئ. فقد قيل شريعة آدم أيضا وهو محكى عن ابن برهان. وقيل: جميع الشرائع. حكاه صاحب «المحصول» من المالكية.

وقال شيخ الإسلام البلقينى فى شرح البخارى: لم تجئ فى الأحاديث التى وقفنا عليها كيفية تعبده ﷺ. لكن روى ابن إسحاق وغيره. أنه ﷺ كان يخرج إلى حمراء فى كل عام شهرا من السنة يتنسك فيه. وكان من تنسك قريش فى الجاهلية أن يطعم الرجل من جاءه من المساكين. حتى إذا انصرف من مجاورته لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة. وحمل بعضهم التعبد على التفكر وقال: وعندى أن هذا التعبد يشتمل على أنواع: وهى الانعزال عن الناس. كما صنع ابراهيم عليه السلام باعتزاله قومه والانقطاع إلى الله تعالى. فإن «انتظار الفرج عباده» كما رواه على بن أبى طالب مرفوعا. وينضم إلى ذلك الأفكار.

وعن بعضهم: كانت عبادته ﷺ فى حراء التفكر [1] . انتهى وأنا أميل إلى القول بما ذكره الإمام البلقينى الشافعى رحمه الله لأن الخلوة هى بعد عن الناس الذين انتشر بينهم فساد فى العقيدة وظهور البدع والمنكرات. وقد كان ذلك بمكة المكرمة فالانعزال يكون عندئذ ضرورى ليخفف عن الصدر ما ضاق به منتظراً أمر ربه عز وجل. وهو يفكر ويتأمل فى تدبير الله فى ملكه. والنبى ﷺ على فصرة النبيين التى لم تقبل ولم تستسغ ما عليه قومه. لذلك كان دائما بعيدا عنهم وعن منتدياتهم.

وقد ظل هكذ وهو يتطلع إلى قدوم فرج الله عز وجل حتى بلغت سنه الأربعون عاما. وهو فى خلوته بغار حراء إذ فاجأه الوحى بأمر الله عز وجل. وهذا هو الفرج المنتظر للبشر كلهم.

(ب) بعثته ﷺ :

فى سنة (٦١٠ ميلادية) من ميلاد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام بعث الله عز وجل نبيه محمدا ﷺ بشيرا ونذيرا وأرسله رحمة للعالمين وكافة للناس يدعوهم إلى الله عز وجل ليؤمنوا به ويعبدوه عبادة خالصة لوجهه الكريم ووعدهم على ذلك المثوبة والأجر العظيم. وكان ذلك فى شهر رمضان وهو بغار حراء بعد تمام الأربعين من عمره الشريف ﷺ. فنزل عليه الوحى بأمر الله عز وجل.

روى البخارى فى صحيحه عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم. وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب له الخلاء. وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله. ويتزود

---

(١) حديث على بن أبى طالب أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى والديلمى وراجع ما نقله القسطلانى فى المواهب اللدنية ٤ / ١١ – ١٤ .

لذلك. ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها. حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد. ثم أرسلنى فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد. ثم أرسلنى فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذنى فغطنى الثالثة. ثم أرسلنى فقال ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ** ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده. فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال: زملونى. زملونى، فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسى. فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا. إنك لتصل الرحم. وتحمل الكل وتكسب المعدوم. وتقرى الضيف. وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة ابن نوفل بن أسد بن عبد العزى – ابن عم خديجة – وكان امرءا تنصر فى الجاهلية. وكان يكتب الكتاب العبرانى. فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب. وكان شيخا كبيرا قد عمى. فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة. يا ابن أخى ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذى نزّل الله على موسى. يا ليتنى فيها جذعا. ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ أو مخرجى هم؟ قال: نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى. وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا. ثم لم ينشب ورقة أن توفى. وفتر الوحى)[1].

وروى البخارى. أن جابر بن عبد الله الأنصارى. قال: وهو يحدث عن فترة الوحى – فقال فى حديثه –: بينما أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء. فرفعت بصرى. فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض. فرعبت منه فرجعت. فقلت: زملونى. فأنزل الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا**

---

(١) فتح البارى ١ / ٢٨، ٢٩.

﴿الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ - إلى قوله - ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فحمى الوحى وتتابع [1] لقد نبئ رسول الله ﷺ بسورة اقرأ. وأرسل بسورة المدثر.

لقد كانت دعوة أبينا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩].

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾

[آل عمران: ١٦٤]

وما بشر به سيدنا عيسى عليه السلام ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف ٦].

فالكتاب. هو القرآن الكريم. والحكمة هى السنة كما قرره وحققه الإمام الشافعى رضى الله عنه فى «الرسالة».

أرسل نبيه محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً * مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٨، ٢٩].

فهو رسول الله ورسالته باقية ولم تنته بوفاته ﷺ. ولكن الذى توقف بالوفاة هو التبليغ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينا﴾ [المائدة: ٣].

قال أبو المعين النسفى [2] صاحب «التبصرة» فى علم التوحيد:

---

(١) فتح البارى ١/ ٣٦، ٣٧.

(٢) غير النسفى صاحب التفسير، والنسفى صاحب العقائد النسفية.

إن الأشعرى قال: إنه ﷺ الآن فى حكم الرسالة وحكم الشئ يقوم مقام أصل الشئ. ألا ترى أن العدة تدل على ما كان من أحكام النكاح. انتهى.

وقال غيره: إن النبوة والرسالة باقية بعد موته ﷺ حقيقة. كما يبقى وصف الإيمان بعد موته. لأن المتصف بالنبوة والرسالة والإيمان هو الروح. وهى باقية لا تتغير بموت البدن. انتهى.

وتعقب بأن الأنبياء أحياء فى قبورهم فوصف النبوة باق للجسد والروح معا.

وقال القشيرى: كلام الله تعالى لمن اصطفاه: أرسلتك أن تبلغ عنى. وكلامه تعالى قديم. فهو ﷺ قبل أن يوجد كان رسولا. وفى حال كونه وإلى الأبد رسولا. لبقاء الكلام وقدمه واستحالة البطلان على الإرسال الذى هو كلام الله تعالى.

ونقل السبكى فى طبقاته عن ابن فورك أنه قال: إنه ﷺ حى فى قبره رسول الله إلى أبد الآباد على الحقيقة لا المجاز. انتهى (١).

وقال تعالى فى مقام المن على هذه الأمة: ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾

[الجمعة: ٢]

أمة أمية بعث فيهم نبيا أميا ومعجزته الخالدة هى القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٨] ومع ذلك – رغم تصديقهم له – لم يؤمنوا برسالته وكذبوا بما جاء به. ﴿ **فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ [الأنعام: ٣٣].

---

(١) ذكر هذه الأقوال القسطلانى فى المواهب ٣/ ١٥٤، ١٥٥.

روى أبو صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

إن رجلا قال: والله يا محمد ما كذبتنا قط فنتهمك اليوم ولكنا إن نتبعك نتخطف من أرضنا فنزلت هذه الآية.

وروى ابن أبى حاتم قال: روى أن أبا جهل لقيه فصافحه فقيل له: أتصافحه؟ فقال: والله إنى لأعلم أنه نبى. ولكن متى كنا تبعا لبنى عبد مناف؟ فأنزل الله الآية.

وروى مثله عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: قال أبو جهل للنبى ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به. فأنزل الله تعالى الآية.

والمعنى: أنهم بحسدهم وعصبيتهم ينكرونه مع العلم بصحته إذ الجحد هو الإنكار مع العلم. فهم يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ولكن الله سبحانه وتعالى قد هدى غيرهم فآمنوا به استجابة لله ولرسوله ﷺ.

فكان فى طليعة هؤلاء: السيدة: خديجة بنت خويلد زوجه وأم أولاده التى شرفها الله تعالى بأن أعقب منها كل أبناء رسول الله ﷺ وذريته إلى يوم القيامة.

لقد آمنت برسول الله ﷺ منذ الوهلة الأولى ووقفت بجواره تؤيده وترعاه بدفئها وحنانها وإيمانها به وبما جاء به حتى وفاتها ثم زيد بن حارثة. مولاه. ثم على بن أبى طالب كرم الله وجهه ثم أبو بكر الصديق رضى الله عنه ثم عثمان بن عفان رضى الله عنه ثم عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ثم تبعهم وجاء من بعدهم سعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام وسعيد بن زيد وزوجه فاطمة بنت الخطاب وعمار بن ياسر وأبوه وأمه. وبلال، وطلحة بن عبيد الله وعمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر وحمزة بن عبد المطلب وغيرهم رضى الله عنهم وأخذت مسيرة الدعوة المحمدية تمشى رويدا. رويدا. والنبى ﷺ يواجه أهل مكة ويحاورهم فى موقف قوى وصلب وحرأة لا نظير لها وهو يقول لعمه أبى طالب: (والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى

أبلغه أو أهلك دونه) لقد كانت عظمة المصطفى ﷺ تتجلى فى شجاعته وجرأته وصلابته وقوته فى إظهار الحق وتبليغ دعوة ربه عز وجل. فما أيس وما ضعف وما وهنت عزيمته وما خارت قواه ﷺ ولا غرابة. فهو رسول الله الذى أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله بالحجة والبيان وبالنصر والغلبة والتاييد حتى يظهر على مخالفيه ويكون منصورا.

وكما تعرض لأهل مكة تعرض أيضا للقبائل المحيطة بها ولحجاج بيت الله الحرام وذهب إلى الطائف فأعرض عنه أهلها وأحالوا عليه صبيانهم وعبيدهم يرمونه باحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين فشكا لربه عز وجل (اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس. يا رب المستضعفين أنت ربى إلى من تكلنى إلى قريب بتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى. يا رب إن لم يكم بك غضب على فلا أبالى).

فجاءت رسل السماء بأمر ربها عز وجل (لو أمرتنى أن أطبق عليهم الأخشبين – الجبلين – لفعلت).

فرفع يديه مرة أخرى وقال: (اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون) فقال له سيدنا جبريل عليه السلام (سبحان من سماك الرؤوف الرحيم) فعاد النبى ﷺ وهو حزين على أمته حزت خوف عليهم من الهلاك.

وتصدى الجبابرة من أهل مكة لدعوته. وأرهقوا اتباعه بالتنكيل بهم فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة وقال لهم (إن بها ملكا لا يظلم عنده أحد) وهاجروا إليها مرتين يتقدمهم سيدنا عثمان بن عفان وزوجته السيدة رقية بنت الرسول ﷺ.

ولم يفت هذا فى عضد النبى ﷺ. فقد كانت عزيمته تزداد يومًا بعد يوم وعظمته تجلو بهاء ونورا فى كل يوم وإصراره على تبليغ رسالته يقوى فى كل لحظة. وتوكله على الله يزيده حسنا وبهاء. وفى كل يوم بل فى كل لحظة يزداد

ثقة فى تحقيق آماله فى إثبات نبوته عند الناس فيدخلون فى دين الله أفواجا وأفرحه أخبار النجاشى الذى أسلم واحتضن أتباعه وأصحابه ففتح بذلك ميدانا جديدا للدعوة ومركزا ثانيا للتبليغ فعبر الإسلام بذلك إلى افريقيا. فى أقوى مركز للكنيسة النصرانية.

وفى السنة الحادية عشرة من البعثة مات عمه أبو طالب وتوفيت زوجته العظيمة السيدة خديجة رضى الله عنها ودفنت بالمعلى – مقبرة أهل مكة – بجوار ولديها: القاسم وعبد الله عليهما السلام. وبذلك ذهب الاثنان: أبو طالب وخديجة وهما كانا الصدر الحنون لرسول الله ﷺ فبكاهما وحزن عليهما.

(جـ) الإسراء والمعراج:

إن قصة الإسراء والمعراج من أشهر المعجزات وأظهر البراهين وأقوى الحجج المحكمات وأصدق الأنباء وأعظم الآيات. وأتم الدلالات الدالة على تخصيصه ﷺ بعموم الكرامات. ثابتة بالقرآن والسنة وإجماع الأمة.

منَّ الله بها على سيدنا رسول الله ﷺ وحده دون سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين إعلانا لقدره ومنزلته وعلو شأنه ورفعة مكانته. فأراه من آياته الكبرى. ومنحه وأمته من عظيم فضله وجليل إحسانه. وحباه بمزيد من الفضل والإنعام. وشرفه بالعبودية والإقدام على بساط القرب والتجلى فما زاغ البصر وما طغى. وما كذب الفؤاد ما رأى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى. وحظى من فضل ربه بالعطية العظمى. وكلفه ربه عز وجل بالصلاة فعاد بها إلى أمته يهنف قلبه بالبشرى ﷺ، هذا وسوف نذكر القصة فى خصائص النبى ﷺ مفصلة إن شاء الله تعالى.

(د) الهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة)

كان النبى ﷺ يلتقى بالحجاج القادمين إلى مكة المكرمة ليعرض عليهم الإسلام. وكان من بينهم حجاج يثرب التقى بهم فى العقبة مرتين فى عامين

متتاليين عرض عليهم الإسلام وبين لهم ما عليه الناس من الشرك فآمن بدعوته بعضهم وأرسل معهم مصعب بن عمير رضى الله عنه ليبين لهم قضية الإيمان ويشرح لهم ما نزل من الأحكام حتى جاءوا فى العام التالى مبايعين النبى ﷺ على النصرة والدفاع عن الدعوة إن هو هاجر إليهم. واشترطوا عليه وشرطوا له. وقد حضر بيعة العقبة الكبرى معه عمه العباس رضى الله عنه.

وبمقتضى هذه البيعة أذن النبى ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى يثرب، فكان أول المهاجرين. أبو سلمة: عبد الله بن أسد الأسدى رضى الله عنه فى أول المحرم فى السنة الرابعة عشرة من البعثة. وبه وضع سيدنا عمر رضى الله عنه بداية التاريخ الهجرى.

وخرج المسلمون إلى يثرب فرادى وجماعات مهاجرين إلى الله ورسوله. ولم يبق بمكة إلا العبيد والمستضعفون.

ولم يخرج الرسول ﷺ حتى أذن الله تعالى له وبقى معه أبو بكر وعلى رضى الله عنهما.

ولما علم أهل مكة بخروج المسلمين طار صوابهم واجتمعوا فى دار ندوتهم يبحثون هذا الأمر. واتفقوا على قتل النبى ﷺ فأعلمه الوحى بما دبر بينهم وبما اتفقوا عليه. ونزل قول الله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ [الأنفال: ٣٠].

وأمر الوحى رسول الله ﷺ أن لا يبيت على فراشه وينام مكانه على بن أبى طالب كرم الله وجهه ويتسجى ببردة النبى ﷺ.

وخرج رسول الله ﷺ فى صحبة أبى بكر الصديق رضى الله عنه إلى غار ثور جنوبى مكة ليعمى على أهلها طريق سيره ومكثا به ثلاثة أيام خرجا بعدها يستأنفون السير إلى يثرب فى ظروف طبيعية صعبة. يشقون الصحراء القاحلة تحت ضوء الشمس ولهيبها حتى وصلا يثرب فنزلا بقباء حيث كان المهاجرون

والأنصار فى شرف استقبالهما. وكانت البداية بناء مسجد قباء. ثم انتقل النبى ﷺ إلى داخل المدينة ونزل ضيفا على أبى أيوب الأنصارى ثم بنى مسجده الشريف وبنى حوله بيوته وبنى المهاجرون بيوتهم بجوار المسجد وسميت هذه البقعة المدينة المنورة ثم غلب الاسم على كل يثرب.

ولحق به على بن أبى طالب كرم الله وجهه الذى تركه بمكة ليخرج ما عنده من ودائع وأمانات ويؤديها لأصحابها الذين كانوا قد أودعوها عند رسول الله ﷺ، ثم هاجر بعدها مصاحبا لأهل بيت النبوة: السيدة سودة بنت زمعه أم المؤمنين وبنات النبى ﷺ.

ولم يخرج رسول الله ﷺ من مكة خائفا ولا هاربا وإنما خرج منها وسبقه أصحابه ولحق به من لم يهاجر قبله لفتح ميدان جديد للدعوة. بعدما توقف – تقريبا – المد الإسلامى بمكة بسبب زيادة نشاط أهل مكة وتصديهم للدعوة بكل ما يملكون من قوة. فأذن له ربه عز وجل بالهجرة من مكة إلى المدينة المنورة التى استقبله أهلها هو وأصحابه أعظم استقبال وأحسنوا ضيافتهم. ونفذوا ما وعدوا رسول الله ﷺ به فى بيعة العقبة الكبرى. فى حب وصدق وإخلاص لله ولرسوله قال الله تعالى: ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الحشر: ٨، ٩].

(هـ) ما بعد الهجرة:

أخذ رسول الله ﷺ يؤسس دولة الإسلام ويضع اللبنات الأولى لقيامها فى المدينة المنورة.

بنى مسجدى قباء ومسجده الشريف. وأقام معاهدة إخاء بين المهاجرين والأنصار فى وثيقة دستورية رائعة. يضع فيها عنصرى الأمة – المهاجرين

والأنصار – فى بوتقة واحدة ليكونا على قلب رجل واحد – وحدد فيها موقف الدولة من أهل الكتاب وموقفهم منها كما حدد أوضاع المشركين ممن بقى منهم بالمدينة وخيرهم بين البقاء بها أو الرحيل عنها. فاختاروا البقاء بها ثم أسلموا بعد ذلك.

ثم أخذ يعد بناء الجيش الإسلامى القوى لحماية أمن وأمان الدولة وأنشأ بيت مال المسلمين ومؤسستهم الاقتصادية.

ومع ذلك لم يتوانى لحظة عن تبليغ دعوة ربه عز وجل وأخذ القرآن الكريم يتنزل عليه بآيات الأحكام وبيان الحلال و لحرام.

وفى المدينة المنورة: فرض الصوم والزكاة والحج والجهاد فى سبيل الله وأخذت مسيرة الدعوة تنشط وتغزو قبائل العرب حضرها وبدوها و حد المسلمون يخوضون سلسلة جديدة من الجهاد والكفاح ففى ليلة النصف من شعبان سنة اثنين من الهجرة الشريفة من الله على نبيه ﷺ بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرمة ﴿**قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾ [البقرة: ١٤٤].

وكان تحويل القبلة إلى المسجد الحرام إشارة للمسلمين ودعوة لهم وشحذا لهممهم لكى يعملوا على تطهير قبلتهم.

وكانت البداية غزوة بدر الكبرى فى شهر رمضان من السنة نفسها بعد شهر واحد من الأمر بتحويل القبلة.

(و) بدر الكبرى:

بداية الصراع المسلح بين الحق والباطل. بداية استخدام القوة العسكرية ضد المعتدى حماية للدولة وتثبيتًا للسلام وصونا له، لقد علم النبى ﷺ بقدوم قافلة تجارة أهل مكة من بلاد الشام بقيادة أبى سفيان بن حرب بن أمية. فقال النبى

ﷺ لأصحابه: هذه تجارة قريش فإن أردتم أن تخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها عوضا لكم عما فقدتموه بمكة. فافعلوا) وكان الحديث موجها للمهاجرين.

وخرج مع رسول الله ﷺ ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا من المهاجرين والأنصار فى قلة من العدد والعدة وظل الباقون بالمدينة. لأن خروج رسول الله ﷺ ومن معه ليس إلا لاعتراض تجارة قريش فحسب وفى الذين خرجوا كفاية. ولم يكن أحد من المسلمين يدرى أن الله تعالى يدبر أمرا آخر.

وفى خروج النبى ﷺ بمن معه أمر خطير إنه بداية حرب اقتصادية على قريش وقطع التجارة القادمة من الشام وإليها عليهم. وفى هذا تكمن الخطورة لأن فيه تهديد لحياتهم. ولما علم أبو سفيان بخروج المسلمين بعث إلى أهل مكة يطلب النجدة منهم. ثم غير طريق التجارة المار بالمدينة وسلك طريقا آخر على شط البحر الأحمر وبذلك نجا بتجارته.

وواصل المسلمون السير حتى وصلوا بدرا. وخرج مكة فى تسعمائة وستين مقاتلا مدججين بالسلاح والعتاد. فقابلهم أبو سفيان وقد نجا بتجارتهم. وطالبهم بأن يعودوا إلى مكة. فأبوا وقالوا: لا بد من أن نرد بدرا لنؤدب محمدا وأصحابه. وواصلوا السير حتى وصلوا قريبا من بدر. وعلم النبى ﷺ بوصولهم فاستشار أصحابه لخطورة الموقف.

فقام أبو بكر ومن بعده عمر بن الخطاب رضى الله عنهما فقالا قولا وأحسنا فيه. ثم قام المقداد بن عمرو وقال: يا رسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. ولكنا نقول لك: إنا معكما مقاتلون. ثم نظر النبى ﷺ إلى الأنصار فقام إليه سعد بن معاذ وقال لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ امض لما أمرك الله. إنا لصُبُر فى الحرب صُدُق عند اللقاء فوالله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك) وهكذا أجمع القادة على لقاء العدو رغم ضعف إمكاناتهم عددا وعدة. فهذا أمل كانوا ينتظرونه، وهذا قدرهم الذى أخفى عنهم وعمن بقى بالمدينة.

وأوقف النبى ﷺ جيشه فى مكان طرف بدر فقام إليه الحباب بن المنذر – حبير فى فنون الحرب والقتال – وقال: يا رسول الله أهذا المنزل – المكان – أنزلكه الله تعالى أم هو الرأى والحرب والمكيدة. فقال النبى ﷺ (لا. إنما الرأى والحرب والمكيدة) فقال يا رسول الله ليس هذا بمنزل. أرى أن نرد ماء بدر فنقيم عليها فنشرب ولا يشربون وهذا أخطر ما يصيب القوات المحاربة. لأن الجندى المحارب إذا فقد شيئا من شئونه الإدارية. ينهار ولا يستطيع قتالا. وخصوصا أنه سيحارب فى صحراء قاحلة. ولا يوجد إلا فى بئر بدر.

واستحاب النبى ﷺ لمشورة الحباب بن المنذر وانتقل الجيش إلى بئر بدر وسيطر على مائها. وتم بناء عريش (مركز قيادة) لرسول الله ﷺ وقام على حراسته أبو بكر وسعد بن معاذ رضى الله عنهما.

وأرسل النبى ﷺ مفرزة استطلاع مكونة من حمزة بن عبد المطلب وسعد ابن أبى وقاص وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم ليجمعوا له معلومات عن العدو. وهذا من أساسيات النظام فى القوات المسلحة فى كافة العصور.

وقام النبى ﷺ بتقدير الموقف وقال لأصحابه (إن قريشا قد بعثت لكم بفلذات أكبادها).

ورجع النبى ﷺ إلى عريشه يدعو ربه ويطلب منه النصر لهذه الفئة المؤمنة الصابرة.

وقامت المعركة ودارت رحاها واشتد بأسها وحمى وطيسها وأمد الله عباده بجمع من الملائكة يقاتلون معهم منفذين أمر ربهم ﴿**فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ**﴾ وتحقق نصر الله لأوليائه. وتوقف القتال وفرَّ جيش قريش هاربا من أرض المعركة. وكانت نتيجة المعركة استشهاد أربعة عشر صحابى. هم شهداء بدر رضى الله عنهم. وقتل من المشركين سبعون. وأسر سبعون. وتم الله نعمته على أحبابه ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ وجمع المسلمون الأسرى والغنائم. فاستشار أصحابه فى أمرهم

فأشار عليه أبو بكر بأخذ الفدية منهم وتركهم وأشار عمر رضى الله عنه على رسول الله ﷺ بقتلهم. فأخذ النبي ﷺ برأى أبى بكر رضى الله عنه. فأنزل الله تعالى ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ...** ﴾ الآية.

وهكذا يكون نصر الله تعالى لأوليائه. إن أطاعوا الله ورسوله فرغم قلة عدد المسلمين وعدتهم بالنسبة لعدة وعتاد أعدائهم إلا أن الله تعالى نصرهم وأعزهم لصدقهم وإخلاصهم واحترام قيادتهم. وكان الأمر شورى بينهم فاختاروا الله ورسوله دفاعا عن الحق والعقيدة. وحماية لرسول الله ﷺ فى صبر وإيمان وعزيمة وإقدام فأنزل الله عز وجل عليهم ملائكته ليثبتوهم وليقاتلوا معهم عدوهم.

فهذه المعركة هزت كيان أهل مكة الذين فقدوا الكثير من زعمائهم كأبى جهل وأمية بن خلف وشيبة وربيعة ابنا المغيرة.

كما أنها حركت الخوف والرعب فى قلوب اليهود. وجعلت شيوخ القبائل المحيطة بالمدينة يراجعون حساباتهم وقدم بعضهم إلى المدينة يشهرون إسلامهم.

فكان يوم بدر بحق هو يوم الفرقان وكان النبى ﷺ فيه عظيما حيث أدار المعركة بكفاءة واقتدار مقدرا كل الظروف والملابسات مراعيا لحق رجاله فى المشورة وإبداء الرأى. مستعينا بربه عز وجل وداعيا له أن ينصر هذه الفئة المؤمنة الصابرة لقد غيرت معركة بدر الكبرى وجه التاريخ وثبتت أركان الدولة المسلمة الفتية. وفتحت للمسلمين طريق الجهاد والكفاح وحمل السلاح فى وجه كل من تسول له نفسه الاعتداء على حرمة الدولة ومقدساتها وصدق الله العظيم ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾.

(ز) معركة أحد:

كانت معركة بدر الكبرى درسا قاسيا لأهل مكة المكرمة لقنه المسلمون لهم فى معركة كانت قريش فيها الأكثر عددا وعدة. ولكن كان سلاح المسلمين هو الأمضى والأقوى والهدف أوضح وأبين.

كان سلاحهم الإيمان الصادق والصبر العالى. وهدفهم هو نصرة دين الله عز

وجل وحماية نبيه المصطفى ﷺ. فكان النصر حليفهم وعناية الله تعالى ترعاهم وتحفظهم. فهم الفئة المؤمنة وقدر الله النصر لهم فى أول معاركهم ليشحذ هممهم وليدفعهم فى ثبات لكى يخوضوا ما ينتظرهم من معارك وغزوات نصرة للإسلام ولنبيه ﷺ.

لقد ذلت قريش. قتل وأسر فى صفوفهم. وما كادوا يضمدون جراحهم ويفدون أسراهم حتى أخذوا ينادون بعضهم بعضا بالثأر من محمد وأصحابه. وخرجوا من بلدهم فى ثلاثة آلاف مقاتل وخرج إليهم الرسول ﷺ فى ألف مجاهد تقاعس منهم ثلثمائة وعادوا من الطريق وقالوا للرسول ﷺ **(لَوْ نَعْلَمُ قِتالا لاتَّبعْناكُمْ)**.

وسار النبى ﷺ فى سبعمائة مجاهد أخلصوا العمل لربهم عز وجل. حتى وصلوا أحدا. ونظم النبى ﷺ صفوف قواته، وعين منهم فريقا ليكونوا رماة فيصعدون الجبل ولا يتحركون ليحموا ظهور المقاتلين.

والتقى الجمعان واحتدم القتال. وأخذ المسلمون يعملون سيوفهم وحرابهم فى رقاب العدو حتى كانت الغلبة لجند الله عز وجل الذين فر العدو من أمامهم. ولما رأى ذلك الرماة نزلوا من على جبل أحد وظنوا المعركة قد انتهت. ولما رأى ذلك المشركون قفلوا راجعين وأخذ خالد بن الوليد فريقا من المشركين وصعد بهم الجبل وأخذ يرمى المسلمين بالنبل وعاد بقية جيش المشركين وخاصة مع المسلمين جولة أخرى من القتال فحقق جيش الكفر نصرا فى هذه الجولة وسقط من المسلمين سبعين شهيدا وتفرق الناس اللهم إلا نفر قليل مع النبى ﷺ الذى لم يترك مكانه مقاتلا شجاعا قويا حتى كسرت رباعيته وشج رأسه فستره أصحابه. ونادى منادى قريش أن محمدا قد قتل. فتملكهم الفرح والسرور بذلك الخبر وحملوا متاعهم وعدتهم وقفلوا راجعين فتعقبهم المسلمون بقيادة على بن أبى طالب فى حمراء الأسد ودار بينهما القتال فى جولة ثالثة كتب الله فيها النصر للمسلمين وفر القريشيون من ساحة المعركة هاربين.

وهكذا كانت مسيرة المعركة – نصر ثم هزيمة ثم نصر. وكانت نتيجة

المعركة درسا بالغا للمسلمين من الرماة الذين خالفوا أمر القائد وتركوا مكانهم ليبحثوا عن حطام الدنيا وجمع الغنائم. فشتان بين بدر وأحد وتفقد النبى ﷺ الشهداء من أصحابه فوجد من بينهم عمه سيد الشهداء: حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه وقد بقرت بطنه وأخرجت كبده هند بنت عتبة ولاكتها تثأر لقتل أبيها وأخيها وغيرهم.

حزن النبى ﷺ لما رأى عمه وقال: لئن ظفرت بقريش لأمثلن بسبعين منهم فأنزل الله عليه قوله تعالى ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾

[النحل: ١٢٦ – ١٢٨]

وقال الله عز وجل مواسيا للنبى ﷺ ولأصحابه: ﴿ **وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٩ – ١٤٣]

﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ** ﴾ فى أحد ﴿ **فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ** ﴾ أى فى بدر ﴿ **وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ** ﴾ أى كنتم دائما تطلبون الإذن بالقتال لتنالوا لنصر أو الشهادة فى سبيل الله. وقد جاءكم الإذن والحرب هزيمة ونصر ﴿ **وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ فيوم لك ويوم عليك وكلها بأقدار الله عز وجل ومشيئته.

(ح) يوم حنين:

وفى يوم حنين قدم المشركون فى ثلاثة آلاف وخرج إليهم الرسول ﷺ فى عشرة آلاف وأصبح مختلفا عن ذى قبل وتهامس بعض المسلمين فيما بينهم

يقولون: لن نغلب اليوم من قلة وكان لا بد لهم أن يلقنوا درسا فى حسن التوكل على الله وتفويض الأمر له عز وجل وطلب النصر منه لا من عددهم وعدتهم.

ويصور القرآن هذا الأمر الخطير فيقول الله تعالى لأوليائه وأحبابه: ﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ** ﴾ [التوبة: ٢٥ – ٢٦].

(ط) وماذا بعد ذلك؟

لقد ذكرنا من تاريخ العسكرية الإسلامية فى عصر النبوة ثلاثة نماذج فى ثلاث معارك (بدر – أحد – حنين).

فى بدر صدقوا الله ورسوله فيما عاهدوه عليه وصبروا على ما قدر لهم فأعزهم الله تعالى بتأييده ونصره.

وفى أحد. خالف الرماة أمر القائد ﷺ ونسوا أن من أطاع الرسول فقد أطاع الله تعالى. فكانت الهزيمة بعد نصر قد تحقق ويوم حنين لم يحسنوا التوكل وبنى بعضهم تحقيق النصر على كثرة عددهم فأوقعهم الله فى محنة شديدة. ثم أمد نبيه ﷺ ومن ثبت معه من أصحابه رضى الله عنهم بملائكته.

والحمد لله تعالى لقد استوعب المؤمنون الدرس وما عادوا لمثلها بعد ذلك ولقد خاض المسلمون أكثر من ثلاثين معركة وغزوة وسرية قادهم فى أكثرها سيدنا رسول الله ﷺ. وانتشر بين العرب والبلاد المحيطة أخبار انتصارات المسلمين وهزائم خصومهم فأخذ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا وخاصة بعد صلح الحديبية الذى يعتبر وثيقة سياسية أعترفت فيها قريش برسالة محمد ﷺ كما قد فتحت له الباب أمام فتح مكة لكى تصبح من بلدان الدولة الإسلامية الأولية. وبذلك صارت مكة العاصمة الثانية للمسلمين ومركزا رئيسيا – كما كانت فى البداية – لتبليغ الدعوة.

ثم أخذ النبى ﷺ يبعث برسائله وكتبه إلى الملوك والرؤساء للبلدان المحيطة به يدعوهم فيها للدخول فى الإسلام. فى أدب جم محافظا لهم – فى رسائله – على هيبتهم ومراكزهم القيادية عند شعوبهم وطهر المدينة المنورة من اليهود فأجلاهم عنها وقال: (أخرجوا يهود من جزيرة العرب).

وتوافد عليه رؤساء القبائل وحكام بعض البلدان ليشهروا إسلامهم وإسلام أتباعهم من رعيتهم.

وفى السنة العاشرة من الهجرة حج حجة الوداع. وبعدها بثلاثة أشهر تقريبا انتقل إلى الرفيق الأعلى فى يوم الإثنين (١٢ من ربيع الأول سنة ١١ هـ) ودفن فى بيت السيدة عائشة رضى الله عنها وخلف من بعد أصحابه فقد مات ﷺ وهو عنهم راض صلوات الله وسلامه عليه.

* * *

أخلاق النبوة وأوصاف النبى ﷺ

الله سبحانه وتعالى خلق كل شئ فقدره تقديرا. وأحسن خلقه وترتيبه. وخلق الإنسان فى أحسن تقويم وصوره فى أحسن صورة. وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا.

قال الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** ﴾ [الإسراء: ٧٠] و أدب نبيه ورسوله سيدنا محمدا ﷺ فأحسن تأديبه. وزكى أوصافه وأخلاقه. ثم اتخذه صفيه وخليله وقال له فى كتابه ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم: ٤].

ووفق - سبحانه وتعالى - للاقتداء به من أراد تهذيبه. وحرم عن التخلق بأخلاقه ﷺ كل من أراد تخييبه قال عز وجل ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** ﴾.

لذا اهتم الإسلام بهذا الجانب العظيم فى شريعته ﷺ لأن الأخلاق الفاضلة والتحلى بالصفات الحميدة بها كمال الإيمان وتجويده وتحسينه. وهى أيضا ثمرته وعنوانه.

فإن فى آداب الظواهر عنوان آداب البواطن. وحركات الجوارح ثمرات الخواطر. والأعمال نتيجة الأخلاق. والآداب رشح المعارف وسرائر القلوب هى مغارس الأفعال ومنابعها. وأنوار السرائر هى التى تشرق على الظواهر فتزينها وتجليها. وتبدل بالمحاسن مكارهها ومساوئها. ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه ومن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الإلهية لم يغض على ظاهره جمال الآداب النبوية والأنوار المحمدية والأخلاق والصفات المصطفوية ومن حرم من ذلك فقد بعد كثيرا عن مقام الصديقية. لأنه لم يحسن الاقتداء بخير البرية وصفوة الإنسانية صلى الله عليه وآله وسلم والطريق مرسوم ومعبّد ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾.

ومن أراد استفاد. ومن اهتدى فقد هدى إلى صراط مستقيم ومن طلب العلى بلغ المنى ﴿ **وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا** ﴾.

ومن أحبه الله تعالى جعل قلبه مشكاة للأنوار القدسية. وأفاض عليه من الأنوار المحمدية. ورفعه إلى مقام الصديقية. وكان فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

اللهم امددنا بمدد نبيك ﷺ وأفض علينا من أنواره وأدبنا بآدابه وصفاته فنحظى بسعادة الدارين.

(١) كان خلقه القرآن :

لقد أدب الله تعالى حبيبه وصفيه وخيرة خلقه محمدا صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن الكريم فأحسن تأديبه. زينه وجمله بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق.

وكان رسول الله ﷺ كثير الضراعة والابتهال دائم السؤال من الله تعالى أن يحقق له ذلك.

فقد روى أحمد عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يقول فى دعائه (اللهم أحسنت خلْقى فأحسن خُلُقى).

وروى الترمذى والحاكم واللفظ للترمذى من حديث قطبة بن مالك. أن من دعائه ﷺ (اللهم إنى أعوذ بك من منكرات الأخلاق) فاستجاب الله عز وجل دعاءه وأدبه وهذبه بالقرآن فكان خلقه ﷺ القرآن.

روى مسلم عن سعد بن هشام قال: دخلت على عائشة – رضى الله عنها وعن أبويها – فسألتها عن أخلاق رسول الله ﷺ فقالت: (كان خلقه القرآن).

وفى القرآن الكريم جملة من الآداب والتوجيهات والإرشاد إلى مكارم الأخلاق. تبلغ العشرات من الآيات وأكثر من ذلك وكذلك آيات العتاب. وروى أيضا فى السنة الشريفة الأحاديث الكثيرة التى تدعو إلى ذلك.

يقول الإمام الغزالى فى الإحياء [١]: بعد أن سرد العديد من هذه الآيات: وأمثال هذه التأديبات فى القرآن الكريم لا تحصر، وهو عليه السلام المقصود الأول بالتأديب والتهذيب. ثم منه يشرق النور على كافة الخلق. فإنه – ﷺ – أدب بالقرآن وأدب الخلق به. ولذلك قال ﷺ: (بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق) [٢].

---

(١) إحياء علوم الدين ٢ / ٣٨٧.

(٢) أخرجه أحمد والحاكم والبيهقى من حديث أبى هريرة وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم.

ثم رغب الخلق فى محاسن الأخلاق. ثم يقول الإمام الغزالى: ثم لما أكمل الله تعالى خُلُقه – ﷺ – أثنى عليه.

فقال تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ فسبحانه ما أعظم شأنه وأتم امتنانه. ثم انظر إلى عميم لطفه وعظيم فضله كيف أعطى ثم أثنى؟ فهو الذى زينه بالخلق الكريم ثم أضاف إليه ذلك. فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

ثم بين رسول الله ﷺ للخلق أن الله يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفاسفها (١).

قال على – بن أبى طالب – رضى الله عنه: يا عجبا لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم فى حاجة. فلا يرى نفسه للخير أهلا. فلو كان لا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا، لقد كان ينبغى له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق فإنها مما تدل على سبيل النجاة. فقال له رجل: أسمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم وما هو خير منه لما أتى بسبايا طئ. وقفت جارية فى السبى. فقالت: يا محمد إن رأيت أن تخلى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب فإنى بنت سيد قومى وإن أبى كان يحمى الذمار ويفك العانى ويشبع الجائع ويطعم الطعام ويفشى السلام ولم يرد طالب حاجة قط. أنا ابنة حاتم الطائى. فقال ﷺ: (يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه. خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق وإن الله يحب مكارم الأخلاق).

فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله. الله يحب مكارم الأخلاق؟ فقال: (والذى نفسى بيده لا يدخل الجنة إلا حسن الخلق).

وقال الإمام الغزالى:

ومن ذلك: حسن المعاشرة. وكرم الصنيعة. ولين الجانب. وبذل المعروف وإطعام الطعام. وإفشاء السلام. وعيادة المريض المسلم براكان أو فاجرا. وتشييع جنازة المسلم. وحسن الجوار لمن جاورت – مسلماكان أو كافرا – و توقير ذى الشيبة المسلم. وإجابة الطعام والدعاء عليه. والعفو. والإصلاح بين الناس. والجود

---

(١) أخرج البيهقى من حديث سهل بن سعد ورفعه: (إن الله يحب معالى الأخلاق ويبغض سفاسفها).

والكرم. والسماحة والابتداء بالسلام. وكظم الغيظ والعفو عن الناس. واجتناب ما حرمه الإسلام من اللهو والباطل والغناء والمعازف كلها. وكل ذى وتر. وكل ذى دخل والغلبة والكذب والبخل والشح والجفاء والمكر والخديعة والنميمة. وسوء ذات البين وقطيعة الأرحام. وسوء الخلق والتكبر والفخر والاختيال والاستطالة والبذخ والفحش والتفحش والحقد والحسد والطيرة والبغى والعدوان والظلم.

قال أنس رضى الله عنه (فلم يدع نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها. ولم يدع غشا - أو قال: عيبا أو قال: شيئا - إلا حذرناه ونهانا عنه). ويكفى من ذلك كله هذه الآية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾.

وقال معاذ - بن جبل رضى الله عنه -: أوصانى رسول الله ﷺ فقال: (يا معاذ: أوصيك باتقاء الله. وصدق الحديث والوفاء بالعهد. وأداء الأمانة. وترك الخيانة وحفظ الجار ورحمة اليتيم. ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل ولزوم الإيمان والتفقه فى القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وخفض الجناح. وأنهاك أن تسب حكيما أو تكذب صادقا أو تطيع آثما. أو تعصى إماما عادلا أو تفسد أرضا. وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر. وأن تحدث لكل ذنب توبة. السر بالسر. والعلانية بالعلانية)[1] فهكذا أدب عباد الله ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب. أ. هـ.

* * *

(٢) بيان جملة من محاسن أخلاقه وآدابه

لقد اقتبس العلماء والباحثون من القرآن الكريم ومن السنة الشريفة جملا من محاسن أخلاق النبى ﷺ وآدابه ووضعوا فى ذلك العديد من المصنفات والكتب والرسائل القيمة التى زينوا بها مؤلفاتهم وجملوا بها مصنفاتهم وتقربوا

---

(١) أخرجه الخرائطى والبيهقى وأبو نعيم وإسناده ضعيف والمعانى صحيحة لأنها وردت فيها آيات وأحاديث أخرى صحيحة.

بذكرها وتبيينها إلى حضرته الشريفة وعطروا بذكرها أوراقهم وأقلامهم وألسنتهم التى تحدثت بذكرها إلى العامة والخاصة.

إن المئات من العلماء قد كتبوا والآلاف قد تحدثوا. وسيظل المسلمون يكتبون ويتحدثون عن الخلق العظيم والأدب الجم لسيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد كان الإمام الغزالى والقاضى عياض والترمذى وسائر أصحاب الحديث حظهم أوفر من غيرهم فى جمع شمائله وصفاته وآدابه صلوات الله وسلامه عليه. ونكتفى فى هذا الباب بذكر ما كتبه أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى. لأنه مما أجمع العلماء عليه.

يقول: كان ﷺ أحلم الناس وأشجع الناس وأعدل الناس. وأعف الناس. لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها. أو تكون ذات محرم منه. وكان أسخى الناس. لا يبيت عنده دينار ولا درهم. وإن فضل شئ ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه. لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك فى سبيل الله لا يسأل شيئا إلا أعطاه. ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى إنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شئ. وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم فى مهنة أهله. ويقطع اللحم معهن. وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره فى وجه أحد. ويجيب دعوة العبد والحر ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافئ عليها ويأكلها ولا يأكل الصدقة. ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين يغضب لربه ولا يغضب لنفسه. وينفذ الحق وإن عاد ذلك بالضرر عليه أو على أصحابه. وعرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو فى قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده فى عدد من معه فأبى. وقال: أنا لا أنتصر بمشرك.

وجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يحف عليهم ولا

زاد على ما أمر به الحق بل وداه بمائة ناقة. وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقوون به. وكان يعصب الحجر على بطنه مرة من الجوع. ومرة يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ولا يتورع عن مطعم حلال. وإن وجد تمرا دون خبز أكله وإن وجد شواء أكله. وإن وجد خبز بر أو شعير أكله. وإن وجد حلوا أو عسلا أكله. وإن وجد لبنا دون خبز اكتفى به. وإن وجد بطيخا أو رطبا أكله. لا يأكل متكئا ولا على خوان. منديله باطن قدميه لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية. حتى لقى الله تعالى إيثارا على نفسه لا فقرا ولا بخلا. يجيب الوليمة ويعود المرضى. ويشهد الجنائز ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس أشد الناس تواضعا. وأسكنهم في غير كبر وأبلغهم في غير تطويل. وأحسنهم بشرا لا يهوله شئ من أمور الدنيا ويلبس ما وجد فمرة شملة ومرة برد حبرة يمانيا ومرة جبة صوف. ما وجد من المباح لبس وخاتمه فضة يلبسه في خنصره الأيمن والأيسر يردف خلفه عبده أو غيره يركب ما أمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بغلة شهباء ومرة حمارا ومرة يمشي راجلا حافيا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة يعود المرضى في أقصى المدينة. يحب الطيب ويكره الرائحة الرديئة. ويجالس الفقراء ويؤا كل المساكين ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم لا يجفو على أحد. يقبل معذرة المعتذر إليه. يمزح ولا يقول إلا حقا يضحك من غير قهقهة. يرى اللعب المباح فلا ينكره يسابق أهله وترفع الأصوات عليه فيصبر. وكان لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها وكان له عبيد وإماء لا يرتفع عليهم في مأكل ولا ملبس ولا يمضي له وقت في غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد له منه من صلاح نفسه، يخرج إلى بساتين أصحابه لا يحتقر مسكينا لفقرة وزمانته ولا يهاب ملكا لملكه. يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستويا قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب. نشأ في بلاد الجهل والصحارى في فقره وفي رعاية الغنم يتيما لا أب له ولا أم، فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة

وأخبار الأولين والآخرين وما فيه النجاة والفوز فى الآخرة. والغبطة والخلاص فى الدنيا ولزوم الواجب وترك الفضول. أ. هـ.

ومما روى من أخلاق النبى ﷺ. ما رواه أبو البحترى قال: ما شتم رسول الله ﷺ أحدا من المؤمنين بشتيمة إلا جعل لها كفارة ورحمة «متفق عليه من حديث أبى هريرة» وما لعن امرأة قط ولا خادما بلعنة «متفق عليه من حديث عائشة» وقيل له وهو فى القتال: لو لعنتم يا رسول الله فقال: (إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانا) «مسلم عن أبى هريرة».

وكان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له) «أخرجه الشيخان من حديث أبى هريرة» وما ضرب بيده أحدا قط إلا أن يضرب بها فى سبيل الله تعالى. وما انتقم من شئ صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله. وما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك. «متفق عليه من حديث عائشة مع اختلاف يسير».

وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه فى حاجته. «رواه البخارى عن أنس» وقال أنس رضى الله عنه: والذى بعثه بالحق ما قال لى فى شئ كرهه لم فعلته؟ ولا لا منى نساؤه إلا قال (دعوه إنما كان هذا بكتاب وقدر) «متفق عليه».

قالوا: وما عاب رسول الله ﷺ مضجعا. إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرش له اضطجع على الأرض «رواه الترمذى فى الشمائل».

وقد وصفه الله تعالى فى التوراة قبل أن يبعثه فى السطر الأول فقال:

محمد رسول الله عبدى المختار لا فظّ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة. ولكن يعفو ويصفح. مولده بمكة وهجرته بطابة وملكه بالشام يأتزر على وسطه هو ومن معه دعاة للقرآن والعلم يتوضأ على أطرافه. وكذلك نعته فى الإنجيل.

وكان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام. ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف. وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر. وكان إذا لقى أحدا من أصحابه بدأه بالمصافحة. ثم أخذ بيده فشابكه ثم شد قبضته عليها. وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته وأقبل عليه فقال: (ألك حاجة؟) فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته.

وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعا ويمسك بيديه عليهما شبه الحبوة (رواه الترمذى فى الشمائل من حديث أبى سعيد الخدرى وروى البخارى مثله عن عمر) ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس. وما رؤى قط مادا رجليه بين أصحابه حتى لا يضيق بهما على أحد إلا أن يكون المكان واسعا لا ضيق فيه وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التى تحته فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل. وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف محاسنه وتوجهه للمجالس إليه ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة. قال الله تعالى: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ (١) [آل عمران: ١٥٩].

ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم إكراما لهم واستمالة لقلوبهم ويكنى من لم تكن له كنية فكان يدعى بما كناه به. ويكنى أيضا النساء اللاتى لهن الأولاد واللاتى لم يلدن يبتدئ لهن الكنى ويكنى الصبيان فيستميلن به قلوبهم. وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا. وكان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس

---

(١) الإحياء: ٢/ ٣٩٤ - ٣٩٧ بتصرف.

وأنفع الناس للناس ولم تكن ترفع فى مجلسه الأصوات. وكان إذا قام من مجلسه قال: (سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك) ثم يقول (علمنيهن جبريل عليه السلام) «رواه النسائى والحاكم» أ. هـ.

* * *

(٣) ذكر بعض صفاته وأخلاقه ﷺ

لقد تميزت شخصية المصطفى ﷺ بالعديد من الجوانب المضيئة النورانية والهادية لكل من يريد أن يسمو بنفسه ويترقى بروحه إلى أعلى درجات الكمال ويحصن نفسه حتى لا ينزلق في مهاوى الضعة والخمول والانحطاط ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾.

وكان الجانب الإنسانى فى شخصية الرسول ﷺ قبل النبوة وبعدها موضع اهتمام العلماء والباحثين دائما لأنه منهل عذب صافى يجب على المسلم أن ينهل منه حتى يروى ظمأه ويأخذ منه زاده ليبنى نفسه ويضعها على طريق الجادة المحفوف بالأنوار المحمدية القدسية ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾.

عند ذلك تكتمل سعادة المسلم ويحظى برضا ربه عز وجل ويباركه المصطفى ﷺ ويحبه أهل السموات ويوضع له القبول فى الأرض فيكون محل احترام وتقدير كل من حوله من بنى آدم عليه السلام وملامح شخصية الرسول ﷺ فى جانبها الإنسانى يتجلى أهم مظاهرها فيما يلى:

(١) حسن الخلق:

كان ﷺ حسن الأخلاق قبل النبوة وبعدها. وقد شهد له بذلك كل أهل مكة قبل النبوة حتى أنهم كانوا يلقبونه ويصفونه بأعظم وأجل صفتين يوصف بهما الإنسان (الصادق الأمين) والصدق والأمانة من صفات السمو والرفعة. لأنهما يحققان للفرد الطمأنينة وللمجتمع الأمن والأمان.

وبعد النبوة يؤكد القرآن الكريم على ذلك فيصف النبى ﷺ بعظيم الخلق فيقول الله تعالى لحبيبه ﷺ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

قال الحسن رضى الله عنه: هو آداب القرآن.

وقال قتادة: هو ما كان يأمر به من أمر الله وينهى عنه الله. والمعنى: إنك لعلى الخلق الذى آثرك الله به فى القرآن.

وقال ابن القيم فى مدراج السالكين: إن الله تعالى جمع لرسوله ﷺ مكارم الأخلاق فى قوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾

[الأعراف: ١٩٩]

قال جعفر الصادق رضى الله عنه: أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق. وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية.

وروى أنها لما نزلت قال رسول الله ﷺ لسيدنا جبريل عليه السلام: ما هذا؟ قال: لا أدرى حتى أسأل، فسأل. ثم رجع إليه فقال: (إن الله يأمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك).

وروى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال:

(لم يكن النبى ﷺ سبابا ولا فحاشا ولا لعانا. كان يقول لأحدنا عن المعتبة. ماله تربت جبينه).

وروى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال: (خدمت النبى ﷺ عشر سنين. فما قال لى: أف ولا لم صنعت؟ ولا ألا صنعت).

وروى أيضا عن جابر رضى الله عنه قال: (ما سئل النبى ﷺ عن شئ قط. فقال: لا).

وروى البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه. أن النبى ﷺ قال: (فأى المؤمنين لعنته شتمته جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة).

وأخرج مسلم من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: (إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانا).

وقد مر بنا سلفا ما يدل على حسن خلقه وحميد صفاته ﷺ .

(٢) رحمته ولين جانبه :

كان ﷺ كما وصفه ربه عز وجل فى قوله : ﴿ **عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ ، ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ .

لقد كان رسول الله ﷺ هينا لينا يحب الرفق فى قضاء الأمور ويأمر باليسر وينهى عن العسر وما خير فى أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما . وقد كانت رحمته ورأفته ولين جانبه ﷺ سببا فى إقبال الناس عليه ودخولهم فى دين الله أفواجا .

أخرج البخارى عن جرير بن عبد الله عن النبى ﷺ قال : (من لا يَرحَم لا يُرحمَ) .

وأخرج أيضا عن عائشة رضى الله عنها قالت : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : تقبلون الصبيان . فما نقبلهم . فقال النبى ﷺ : (أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة) ؟

وأخرج أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قبل رسول الله ﷺ . الحسن ابن على – رضى الله عنه – وعنده الأقرع بن حابس التميمى جالسا . فقال الأقرع : إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا . فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال : من لا يرحم لا يرحم) . .

وروى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبى سيف القَيْن . وكان ظئرا لإبراهيم عليه السلام [١] فأخذ رسول الله

---

(١) القَيْن : أى الحداد . واسمه : البراء بن أوس الأنصارى . والظئر : المرضعة ولد غيرها . وزوجها ظئر لذلك الرضيع . وزوجة البراء كانت مرضعة لسيدنا إبراهيم بن سيدنا رسول الله ﷺ .

ﷺ إبراهيم فقبله وشمه ثم دخلنا عليه بعد ذلك. وإبراهيم يجود بنفسه. فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان. فقال له عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه: وأنت يا رسول الله. فقال: يا ابن عوف: (إنها رحمة) ثم اتبعها بأخرى. فقال ﷺ: (إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا. وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون).

وأخرج البخارى أيضا عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ فى سفر وكان معه غلام أسود يقال له: أنجشة. يحدو. فقال له رسول الله ﷺ: (ويحك يا أنجشة. رويدك بالقوارير).

قال العلماء: سمى النساء قوارير لضعف عزائمهن. تشبيها بقارورة الزجاجة لضعفها وأسراع الانكسار إليها.

وروى البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم [1].

قالت عائشة: ففهمتها. فقلت: وعليكم السام واللعنة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: (مهلا يا عائشة إن الله يحب الرفق فى الأمر كله) فقلت: يا رسول الله ولم تسمع ما قالوا؟.

قال رسول الله ﷺ: (قد قلت وعليكم).

وروى أيضا عنها قالت: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما. فإن كان إثما كان أبعد الناس منه. وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه فى شئ قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم بها لله.

وروى أيضا عن أنس بن مالك رضى الله عنه: أن أعرابيا بال فى المسجد. فقاموا إليه. فقال رسول الله ﷺ: (لا تزرموه. ثم دعا بدلو من ماء فصب عليه).

---

(١) السام: هو الدعاء بالموت أو هو الموت. لذلك ردت عليهم السيدة عائشة رضى الله عنها.

وروى أصحاب السنن والسيرة: أنه ﷺ لما دخل مكة ومعه أصحابه عام الفتح. نظر إلى أهلها – وهم الذين آذوه وأصحابه وقتلوا من قتلوا وأخرجوه من بلده – وقال لهم: ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيرا. أخ كريم وابن أخ كريم فقام فيهم خطيبا فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال لهم: أقول لكم كما قال أخى يوسف: ﴿ **لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ [يوسف: ٩٢] لقد شملت رحمته ﷺ الناس جميعا وكذا الحيوان وغيرهما لذا قال له ربه عز وجل فى القرآن الكريم: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

(٣) الحلم والعفو

العفو من شيم الكرام وهو من أبرز صفات الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لذلك دعانا الله عز وجل إلى التحلى بهذه الصفة النبيلة فقال (وأن تعفواقرب للتقوى).

وقال لحبيبه ﷺ ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾

[الأعراف: ١٩٩]

وقال له أيضا: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩] لقد كان رسول الله ﷺ حليما عفوا كريما وكان أقدر الناس على ذلك وأسبقهم إليه ولم يرو عنه عليه الصلاة والسلام أنه انتقم لنفسه مرة. وإنما كان ينتقم لربه عز وجل إذا انتهكت الحرمات وارتكبت الآثام.

روى أبو حامد الغزالى فى الإحياء [١] عن الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال: يا عجبا لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم فى حاجة فلا يرى نفسه

---

(١) إحياء علوم الدين ٢ / ٣٨٨ وقال العراقى: الحديث أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول بإسناد فيه ضعف.

للخير أهلا. فلو كان لا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا. لقد كان ينبغى له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق. فإنها مما تدل على سبيل النجاة.

فقال له رجل: أسمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم وما هو خير منه. لما أتى بسبايا طئ. وقفت جارية فى السبى. فقالت يا محمد. إن رأيت أن تخلى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب. فإنى بنت سيد قومى. وإن أبى كان يحمى الذمار ويفك العانى ويشبع الجائع ويطعم الطعام ويفشى السلام ولم يرد طالب حاجه قط. أنا ابنة حاتم الطائى فقال ﷺ: (يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه. خلو عنها. فإن أباها كان يحب مكارن الأخلاق وإن الله يحب مكارم الأخلاق).

فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله. الله يحب مكارم الأخلاق؟ فقال: (والذى نفسى بيده لا يدخل الجنة إلا حسن الأخلاق).

وقال الإمام الغزالى [1]:

كان ﷺ أحلم الناس وأرغبهم فى العفو مع القدرة حتى أتى بقلائد من ذهب وفضة فقسمها بين أصحابه. فقام رجل من أهل البادية. فقال: يا محمد لئن أمرك الله أن تعدل فما أراك تعدل فقال: (ويحك فمن يعدل عليه بعدى)؟ فلما ولى. قال: (ردوه على رويدا) (أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر بإسناد جيد).

وروى جابر [2] أنه ﷺ كان يقبض للناس يوم خيبر فى ثوب بلال فقال له رجل: يا رسول الله أعدل. فقال له رسول الله ﷺ: (ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل فقد خبت وخسرت إن كنت لا أعدل) فقام عمر فقال: ألا أضرب عنقه فإنه منافق. فقال: (معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى) وكان رسول الله ﷺ فى حرب فرأوا من المسلمين غرة فجاء رجل حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف فقال: من يمنعك منى؟ فقال: «الله» فقال: فسقط السيف من يده

---

(١) المصدر السابق ٢/٤٠٨، ٤٠٩.

(٢) قال العراقى: الحديث. رواه مسلم.

فأخذ رسول الله ﷺ السيف وقال: من يمنعك منى. فقال: كن خير آخذ قال: قل: أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله. فقال: لا غير أنى لا أقاتلك ولا أكون معك ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلى سبيله. فجاء أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس [1].

وروى أنس: أن يهودية أتت النبى ﷺ بشاة مسمومة ليأكل منها فجئ بها إلى النبى ﷺ فسألها عن ذلك. فقالت: أردت قتلك. فقال: ما كان الله ليسلطك على ذلك.

قالوا: أفلا نقتلها؟ فقال: لا (متفق عليه).

وقال على رضى الله عنه: بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب. فخذوه منها. فانطلقنا حتى أتينا روضة خاخ فقلنا: أخرى الكتاب. فقالت: ما معى من كتاب. فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لتنزعن الثياب. فأخرجته من عقاصها. فأتينا به النبى ﷺ. فإذا فيه: من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم أمرا من أمر رسول الله ﷺ عليه. فقال: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجل على إنى كنت امرأ ملصقا فى قومى وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب منهم أن أتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتى ولم أفعل ذلك كفرا ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ولا ارتدادا عن دينى.

فقال رسول الله ﷺ: إنه صدقكم.

فقال عمر رضى الله عنه: دعنى أضرب عنق هذا المنافق.

فقال ﷺ: (إنه شهد بدرا. وما يدريك لعل الله عز وجل قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم). (متفق عليه) هذا: وتعدد صور

---

(١) الحديث متفق عليه ورواه أيضا أحمد فى مسنده وسمى الرجل: غورث بن الحارث.

العفو والحلم عند رسول الله ﷺ كثيرا فى السلم وفى الحرب وقد شهد له بذلك الأعداء قبل الصحب الكرام.

وكيف لا يكون كذلك وهو رحمة الله للعالمين؟ وهو القدوة والمثل فى تحقيق مكارم الأخلاق والتحلى بحميد الصفات وجميل الأفعال.

(٤) الشجاعة والنجدة

قال علماء الأخلاق. إن الشجاعة وسط بين رذيلتين هما: الجبن والتهور. فالشجاع – دائما – لا يكون جبانا كما أنه لا يكون متهورا لأن فى الصفتين: الهلكة والدمار.

ولقد كان سيدنا رسول الله ﷺ شجاعا فى كل المواطن وفى شتى المواقف.

أخرج الدارمى من حديث ابن عمر بسند صحيح: (ما رأيت أنجد ولا أجود ولا أشجع ولا أرمى من رسول الله ﷺ).

وللشيخين عن أنس رضى الله عنه قال: (كان أشجع الناس وأحسن الناس ..).

وأخرج أبو الشيخ فى أخلاق النبى ﷺ عن على رضى الله عنه قال: لقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأسا).

وروى النسائى عن على كرم الله وجهه قال: (كنا إذا احمر البأس ولقى القوم. القوم اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه) وروى مسلم نحوه من حديث البراء بن عازب وأخرج أبو الشيخ من حديث سعد بن عياض مرسلا: (وكان ﷺ قليل الكلام قليل الحديث. فإذا أمر الناس بالقتال تشمر، وكان من أشد الناس بأسا).

وقال البراء: والله إذا حمى الوطيس نتقى به وإن الشجاع منا الذى يحاذى به) رواه مسلم.

وقال عمران بن حصين: (ما لقى رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب) رواه أبو الشيخ.

وكان ﷺ قوى البطش (ولما غشيه المشركون نزل عن بغلته فجعل يقول:

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فما رؤى يومئذ أحد كان أشد منه (متفق عليه من حديث البراء).

وروى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: (كان النبى ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس. ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قبل الصوت فاستقبلهم النبى ﷺ وقد سبق الناس إلى الصوت. وهو يقول: «لن تراعوا لن تراعوا» وهو على فرس لأبى طلحة عرى ما عليه سرج فى عنقه سيف. فقال: لقد وجدته بحرا أو إنه لبحر).

لقد كانت شجاعته ﷺ تفوق كل شجاعة وقوته تفوق كل قوة. فلم يكن رسول الله ﷺ يوما ضعيفا ولا خائفا. وحسبه صلوات الله وسلامه عليه أنه قد وقف وحيدا يعلن فى جرأة وشجاعة وقوة: أنه رسول رب العالمين. وأنه نذير لقومه بين يدى عذاب شديد. فلم ترهبه مكة بجبروتها وصلفها ويوما قال له عمه أبو طالب: يا ابن أخى ابق على وعلى نفسك فانا لا أقدر على قومك فقال له: يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن اترك هذا الأمر فلن أتركه حتى يبلغه الله أو أهلك دونه.

فوقع هذا الكلام منه على عمه نزول الصاعقة. فقال له: يا ابن أخى أعمل ما شئت فوالله لا أسلمك إليهم أبدا.

ولما تصدى له أهل مكة لم يهن ولم يضعف. بل كان يتعرض للقبائل حولها ولحجاج بيت الله الحرام يدعوهم إلى الدخول فى الإسلام دون خوف أو ضعف وذهب إلى الطائف يدعو أهلها فأعرضوا عنه وأحالوا عليه صبيانهم يرمونه بالحجارة. وقد لقى فى مكة ما لقى من تعنت أهلها وتصديهم

وتهديدهم له وتعذيبهم لأتباعه وقتل بعضهم. ولكنه كان دائما يزداد قوة وجرأة وشجاعة.

وقد وهم بعض المؤرخين أنه ﷺ قد خرج من مكة مهاجرا إلى يثرب خائفا من أهل مكة.

أبدا. والله ما هاجر رسول الله ﷺ خائفا. ولكنه خرج مهاجرا للبحث عن ميدان جديد للدعوة. وكان ﷺ يمكنه أن يقاتل أهل مكة بمن معه من المسلمين. وهم كانوا أكثر ممن حضر بدرا ولكن لم يؤذن له فى القتال بمكة لأن الدعوة كانت فى مهدها فإذا ما بدأها بقتال انصرف الناس وأغلقوا عقولهم عن سماع ما يدعو إليه. لأن عيونهم عندما تنظر إلى بريق السيوف صمت الآذان وأغلقت القلوب وكلت العقول.

لذا تأخر الإذن بالقتال حتى تمت الهجرة واستعت رقعة الأرض التى يقف عليها المسلمون وأخذت القبائل بمكة والمدينة وما حولهما يسمعون بخبر الدعوة وبعضهم قد أقبل على رسول الله ﷺ وشهد له بالرسالة.

هذا. وقد خاض رسول الله ﷺ المعارك المعركة تلو الأخرى غير هياب ولا خائف ولكنه دائما كان أقوى أصحابه وأشجع وأنجد ممن سمعت به البشرية. ولم يكن رسول الله ﷺ يوما ضعيفا ولا مهانا. ويخطئ كثيرا من يظن أن رسول الله ﷺ كان ضعيفا فى بعض الأمور. فالضعف والوهن ليس من صفات الأنبياء والمرسلين ولا يكون أبدا فيمن يقتدى بهم. ولنا فى رسول الله الأسوة الحسنة.

(٥) تواضعه وخياؤه:

كان رسول الله ﷺ أشد الناس تواضعا فى علو منصبه وقد عرف عنه صحابته رضى الله عنهم ذلك فاقتدوا به وتعلموا منه. قال الله تعالى له: ﴿ **واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمنِ اتَّبعَكَ مِنَ المؤْمِنِينَ** ﴾ وروى عنه ﷺ قوله: (إن الله أوحى إلى أن تواضعوا) روى الترمذى والنسائى. قال ابن عامر: رأيته يرمى الحمرة على ناقة شهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك).

وركب الحمار والفرس والناقة ومشى رجلا. وكان يعود المريض ويتبع الجنازة ويجيب دعوة السيد والعبد ويخصف النعل ويرقع الثوب. وكان يكون فى مهنة أهله وفى حاجتهم. وكان يكره أن يقوم له الناس إذا دخل عليهم. وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم وكانوا يدعونه ليتناول الغداء معهم فينزل من على دابته ويجلس معهم ويأكل معهم ويداعبهم.

وأخرج الحاكم من حديث جرير: أتى برجل إلى رسول الله ﷺ فأرعد من هيبته فقال له: (هون عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد) وقال صحيح على شرط الشيخين وكان يجلس بين أصحابه مختلطا بهم كأنه أحدهم فيأتى الغريب فلا يدرى أيهم هو حتى يسأل عنه حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلسا يعرفه الغريب فبنوا له دكانا من طين فكان يجلس عليه.

وكان يقول: (إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأشرب كما يشرب العبد ولو دعيت إلى ذراع لأجبت ولو أهدى إلى كراع لقبلت).

وقال العلماء: كان التواضع أبرز صفات النبى ﷺ ولما اقتدى به أصحابه الكرام فى شيمه وصفاته سادوا الدنيا وفتح الله عليهم البلاد والأمصار.

وكان ﷺ يوصف بالحياء الشديد وقد جمع الله له الحياء بنوعيه: الفطرى والمكتسب. والحياء من الإيمان والإيمان فى الجنة. قال سيدنا أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه: ما سئل رسول الله ﷺ عن شئ فقال: لا. وكان أشد حياء من العذراء فى خدرها (١) ولم يمنعه الحياء أن ينصر الحق وأن ينتصر له ﷺ.

(٦) سخاؤه وجوده:

كان ﷺ أجود الناس وأسخاهم فى شهر رمضان كالريح المرسلة لا يمسك شيئا (رواه الشيخان من حديث أنس).

وروى الترمذى: وكان على رضى الله عنه إذا وصف النبى ﷺ قال: (كان

---

(١) أخرجه البخارى.

أجود الناس كفا. وأوسع الناس صدرا. وأصدق الناس لهجة. وأوفاهم ذمة. وألينهم عريكة. وأكرمهم عشيرة من رآه بديهة هابه. ومن خالطه معرفة أحبه. يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله).

وروى الشيخان عن أنس رضى الله عنه قال: (وما سئل عن شئ قط على الإسلام إلا أعطاه).

وروى أنه ﷺ قال: (من سالكم بالله فاعطوه).

وروى الشيخان من حديث جابر رضى الله عنه قال: (وأن رجلا أتاه فسأله فأعطاه غنما سدت ما بين جبلين فرجع إلى قومه وقال: أسلموا فإن محمد - ﷺ - يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة. وما سئل شيئا قط فقال: لا).

وأخرج الترمذى فى الشمائل من حديث عمر رضى الله عنه: (وجاءه رجل فسأله. فقال: ما عندى شئ. ولكن ابتع على فإذا جاءنا شئ قضيناه.. فقال عمر: يا رسول الله ما كلفك الله مالا تقدر عليه فكره النبى ﷺ ذلك. فقال الرجل: أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا. فتبسم النبى ﷺ وعرف السرور فى وجهه).

إن رسول الله ﷺ كان أكرم الناس وأسخاهم وأجودهم. والجود والكرم من صفات الأسخياء الأوفياء.

لقد تفوق ﷺ على الناس جميعا فى هذا الأمر حتى أنه كان يؤثر سائله على نفسه ﷺ فقال الله تعالى له: ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴾ [الإسراء: ٢٩].

إنه رسول الله ﷺ أعلى الناس قدرا وأسماهم شرفا ورفعة. إنه محمد ﷺ الإنسان الكامل.

لقد امتزجت صفات الرحمة بصفات الشجاعة والقوة وشدة البأس عند رسول الله ﷺ واجتمع حسن خلقه ﷺ مع عدله وإقامته حدود الله فى الأرض

من غير خشية ولا وهن، حتى كان ﷺ الإنسان الكامل فكان فى أعلى مراتب الإنسانية.

وأعتذر لسيدى رسول الله ﷺ عن عجزى عن استيفاء هذا الجانب العظيم من جوانب شخصية الرسول ﷺ وهو الجانب الإنسانى لأنك يا سيدى قد جمعت كل ألوان الكمالات فى ذاتها فأنت يا سيدى عظيم. ولا يوفيك فى الحديث عنك إلا الرب العظيم لأنه خلقك وأدبك وعلمك وأرسلك.

أما أنا وغيرى فلن نستطيع أن نصف النور إلا بأنه نور صلى الله عليك وآلك وصحبك وسلم.

* * *

(٧) أوصافه ﷺ

أعلم أن من تمام الإيمان به ﷺ. الإيمان بأن الله تعالى جعل خلق بدنه الشريف على وجه لم يظهر قبله ولا بعده خلق آدمى مثله. فيكون ما يشاهد من خلق بدنه آيات على ما يتضح لك من عظيم خلق نفسه الكريمة. وما يتضح من عظيم أخلاق نفسه آيات على ما تحقق له من سر قلبه المقدس. ولله در البوصيرى حيث قال:

فهو الذى تم معناه وصورته ثم اصطفا حبيبا بارئ النسم

منزه عن شريك فى محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم

يعنى: حقيقة الحسن الكامل كائنة فيه. لأنه الذ تم معناه دون غيره. وهى غيرمنقسمة بينه وبين غيره، وإلا لما كان حسنه تاما لأنه إذا انقسم لم ينله إلا بعضه فلا يكون تاما وفى الأثر: أن خالد بن الوليد خرج فى سرية من السرايا. فنزل ببعض الأحياء. فقال سيد ذلك الحى: صف لنا محمدا. فقال: أما إنى فصل فلا. فقال الرجل: أجمل. فقال: (الرسول على قدر المرسل) ذكره ابن المنير فى أسرار الإسرار. ذكره القسطلانى فى المواهب اللدنية.

وقد ذكر القرطبى فى كتاب الصلاة عن بعضهم أنه قال: (لم يظهر لنا تمام حسنه ﷺ لأنه لو ظهر لنا تمام حسنه لما أطاقت أعيننا رؤيته ﷺ).

يقول البوصيرى رحمه الله تعالى:

أعيى الورى فهم معناه فليس يرى للقرب والبعد فيه غير منفحم
كالشمس تظهر للعينين من بعد صغيرة وتكل الطرف من أمم

* **(صفة رأسه الشريف)**

روى الترمذى فى جامعه بسنده إلى هند بن أبى هالة قال: كان رسول الله ﷺ عظيم الهامة.

وقال نافع بن جبير: وصف لنا على بن أبى طالب رضي الله عنه رسول الله ﷺ. فقال: كان عظيم الهامة.

* **(صفة وجهه الشريف ﷺ)**

روى الشيخان من حديث البراء قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجها. وأحسنهم خلقا ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير البائن.

وروى أحمد والترمذى والبيهقى قال أبو هريرة رضى الله عنه: ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجرى فى وجهه.

وقال البراء رضى الله عنه لمن سأله: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ فقال لا. بل مثل القمر أى فى التدوير لقد شبهه البراء بالقمر لأن القمر يملأ الأرض بنوره ويؤنس كل من يشاهده، ونوره لين غير حار.

وقال أبو هريرة كان أسبل الخدين.

وأخرج البخارى عن كعب بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ إذا سرّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر. وكنا نعرف ذلك منه.

وفيما أخرجه الترمذى من حديث ابن أبى هالة: كان رسول الله ﷺ فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر.

* (صفة بصره الشريف ﷺ)

قال الله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٧].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يرى بالليل فى الظلمة كما يرى فى النهار فى الضوء [رواه البخارى].

وروى البيهقى عن عائشة رضى الله عنها مثله.

وروى الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (هل ترون قبلتى هاهنا. فوالله ما يخفى على ركوعكم ولا سجودكم إنى لأراكم من وراء ظهرى.).

وفى حديث ابن أبى هالة: وإذا التفت التفت جميعا خافض الطرف. نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء جل نظره الملاحظة.

* (صفة سمعه ﷺ).

روى الترمذى عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون. أطت السماء وحق لها أن تئط. ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجد لله تعالى).

* (صفة جبينه وبعض جسمه ﷺ)

روى البيهقى عن رجل من الصحابة قال: رأيت رسول الله ﷺ. فإذا رجل حسن الجسم عظيم الجبهة. رقيق الحاجبين وروى مسلم من حديث جابر: أنه ﷺ كان ضليع الفم - يعنى واسعه - وكذا وصفه به ابن أبى هالة.

وروى الترمذى فى الشمائل عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ أفلج الثنيتين. إذا تكلم رؤى كالنور يخرج من ثناياه.

* (صفة ريقه وعرقه ﷺ)

روى الشيخان عن سهل بن سعد: أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: « لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه. يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله » فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها.

قال: أين على بن أبى طالب فقالوا: هو يا رسول الله يشتكى عينيه. قال: فأرسلوا إليه فأتى به. فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع.

وروى أبو نعيم: أنه ﷺ بزق فى بئر فى دار أنس فلم يُر فى المدينة بئر أعذب منها.

وكان الصحابة رضى الله عنهم يسلتون عرقه الشريف ويضعونه فى طيبهم. وكان المدينة عائلة يستخدمون عرقه ﷺ فى طيبهم. حتى كانوا يسمون (المطيبين) لطيب ريحهم وهكذا كان رسول الله ﷺ حسن الخَلْق والخُلُق. كان جميل المحيا طيب الرائحة.

يقول أنس رضى الله عنه: ما مسست حريرا ولا ديباجا ألين من كف رسول الله ﷺ وما شممت طيبا ولا ريحا أطيب من ريح رسول الله ﷺ وكان إذا مر من طريق عرفناه لطيب ريحه ﷺ.

* * *